تبعية إنجلترا الإقطاعية لبابوية روما (١٠٦٦- ١٢١٦م)

د/ إيمان عبد التواب خلاوى حسنين

مدرس تاريخ وحضارة العصور الوسطى- قسم التاريخ- كلية الآداب – جامعة دمنهور– مصر

الإيميل الجامعى : eman.khalawi@art.dmu.edu.eg

الكلمات المفتاحية:

التبعية الإقطاعية – إنجلترا – البابوية– النورمان – الملك يوحنا

الملخص

لقد تمتعت البابوية بسخاء ملوك إنجلترا فى الهبات والعطايا منذ الحقبة الأنجلوسكسونية للدرجة التى تحولت معها هذه العطايا إلى حق مكتسب، تسعى البابوية إلى إلزام ملوك إنجلترا فى الاستمرار والمداومة على تسديدها عبر التاريخ الإنجليزى الوسيط، لدرجة أن البابوية كانت تطالب بتلك الأموال إن تأخر ملوك إنجلترا أو حالت ظروفهم عن الدفع والسداد، وهى ظاهرة يمكن رصدها عبر حقبات التاريخ الإنجليزى الوسيط سواء تحت الحكم الأنجلوسكسونى أو النورمانى أو حكم أسرة البلانتاجنت، وقد تشددت البابوية فى بعض الأحيان فى مطالباتها بتلك الأموال؛ لدرجة التصريح لملوك إنجلترا أنهم مدينون بتلك وعليهم الدفع لأنه حق إقطاعى للبابوية؛ بمعنى أن ملوك إنجلترا يحكمونها بمباركة بابوية وعليهم دفع إيجار إقطاعى تماما كما يدفعها حكام المدن والدويلات البابوية فى إيطاليا، وليست نفحات وهبات تخضع لرغبة وحرية ملوك إنجلترا فى منحها أو منعها، وهو ما ترتب عليه ردود فعل حازمة من ملوك إنجلترا تجاه البابوية وصلت لدرجة قيامهم بفرض حصار كامل على البلاد لمنع دخول أى ممثل للبابوية سواء كان موظفاً أو رجل دين أو مبعوثاً بابوياً؛ لكن البابوية استطاعت فى غفلة من الزمن ومن يوحنا ملك إنجلترا أن تتسلل لتحقق هدفها بتنازل الملك يوحنا عن إنجلترا ومنحها للبابوية –ممثلة فى شخص البابا إنوسنت الثالث– كإقطاعية بابوية يحكمها الملك يوحنا بوصفه تابعاً إقطاعياً ملزماً بتسديد الإيجار الإقطاعى للبابوية كل عام.

England's feudal vassalage to the Papacy of Rome

(1066 – 1216)

Dr. Iman Abd el Tawab Khalawy Hassanin

Assist. Prof. of Medieval History – Department of History – Faculty of Arts – Damanhour University– Egypt.

Email: eman.khalawi@art.dmu.edu.eg

Keywords:

vassalage – England – Papacy – Norman– King John

Abstract:

The papacy has enjoyed the generosity of the kings of England in donations and gifts since the Anglo-Saxon era, These gifts turned into Acquired right; The papacy seeks to oblige the kings of England to continue and persevere in paying it throughout medieval English history, Even the papacy demanded this money if the kings of England were late or their circumstances prevented them from paying. A phenomenon that can be monitored throughout medieval English history under Anglo-Saxon or Norman rule or the Plantagenet dynasty; In other words, the kings of England rule it as vassals and have to pay a feudal rent just as the rulers of cities and papal states in Italy pay it, so the kings of England imposing a complete blockade on the country to prevent the entry of any representative of the papacy, whether it was an official, a clergyman, or a papal legate.

But the papacy forced King John to abdicating England and giving it to the papacy as a papal fiefdom ruled by King John as a feudal vassal bound to pay the feudal rent to the papacy every year.

تبعية إنجلترا الإقطاعية لبابوية روما (١٠٦٦- ١٢١٦م)

المقدمة

منذ اعتناق إنجلترا للديانة المسيحية وهى حريصة أشد الحرص على الحفاظ على الرابط الدينى والمعنوى مع البابوية، وربما كان من أهم الأسباب التى أدت لذلك البعد المكانى وانعزال إنجلترا جغرافياً عن البابوية فى روما، بالإضافة لتأخر ملوكها نسبياً فى اعتناق الديانة المسيحية مقارنةً بباقى الممالك المسيحية فى أوروبا، وفى الواقع فإن البابوية بادلت ملوك إنجلترا الاهتمام والحرص على استمرار هذا التواصل؛ ويعتبر ذلك محصلة طبيعية ومتوقعة نظراً لأن ملوك إنجلترا كانوا أكثر ملوك أوروبا سخاءً وكرماً مع البابوية وأكثرهم تقديماً للمنح والعطايا الدينية، فلم يكتف ملوك إنجلترا بالصدقات والهبات التطوعية بل وصل الأمر لدرجة أنهم استحدثوا أنواعاً من الضرائب تفرض على الكنائس والأديرة وعامة المسيحيين فى أرجاء البلاد كى تمنح للبابوية، مثل ضريبة بطرس الرسول التى استحدثها الأنجلوسكسون من أجل البابوية، وكانت غالبية تلك المنح تدفع فى هيئة عملات فضية أو ذهبية خالصة وصلت لدرجة عالية من الإتقان مقارنة بغيرها من عملات ممالك الغرب الأوروبى، لدرجة أن البابوية كانت تطالب بعض ملوك إنجلترا أن يكون عطاؤهم من تلك العملات الذهبية الخالصة.

وفى عودة إلى فكرة تحول الهبات والعطايا إلى حق بابوى مكتسب، تسعى البابوية إلى إلزام ملوك إنجلترا بالاستمرار والمداومة على تسديدها عبر التاريخ الإنجليزى الوسيط، لدرجة أن البابوية كانت تطالب بتلك الأموال إن تأخر ملوك إنجلترا أو حالت ظروفهم عن الدفع والسداد، وهى ظاهرة يمكن رصدها عبر حقبات التاريخ الإنجليزى الوسيط سواء تحت الحكم الأنجلوسكسونى أو النورمانى أو حكم أسرة البلانتاجنت، وقد تشددت البابوية فى بعض الأحيان فى مطالباتها بتلك الأموال؛ لدرجة التصريح لملوك إنجلترا أنهم مدينون بتلك الأموال للبابوية، ووصل الأمر لدرجة مراسلاتهم لإلزامهم بالدفع لأنه حق إقطاعى للبابوية؛ بمعنى أن ملوك إنجلترا يحكمونها بمباركة بابوية وعليهم دفع إيجار إقطاعى تماما كما يدفعها حكام المدن والدويلات البابوية فى إيطاليا، وليست نفحات وهبات تخضع لرغبة وحرية ملوك إنجلترا فى منحها أو منعها، وهو ما ترتب عليه ردود فعل حازمة من ملوك إنجلترا تجاه البابوية وصلت

لدرجة قيامهم بفرض حصار كامل على البلاد لمنع دخول أى ممثل للبابوية سواء كان موظفاً أو رجل دين أو مبعوث بابوى، وهى سياسة ترتب عليها إغلاق إنجلترا فى وجه الطموح والنفوذ؛ لكن البابوية استطاعت فى غفلة من الزمن ومن يوحنا ملك إنجلترا أن تتسلل وتستغل مشكلة التقليد العلمانى و"مشكلة الانتخاب المزدوج" لتحقق هدفها بتنازل الملك يوحنا عن إنجلترا ومنحها للبابوية –ممثلة فى شخص البابا إنوسنت الثالث– كإقطاعية بابوية يحكمها الملك يوحنا بوصفه تابع إقطاعى ملزم بتسديد الإيجار الإقطاعى للبابوية كل عام.

وبناء على ما سبق يتتبع البحث قضية كيف نجحت البابوية فى تحقيق تبعية إنجلترا الإقطاعية للبابوية، لتتحول الصدقات والهبات التى منحها ملوك إنجلترا طوعاً وكرماً منهم إلى إيجار إقطاعى ودين واجب السداد للبابوية كل عام؟ وماهو موقف النبلاء والبارونات الإنجليز من تبعيتهم الإقطاعية المزدوجة لإنجلترا والبابوية فى آن واحد؟ كل هذه التساؤلات وغيرها سيتم الإجابة عنها فى ثنايا البحث.

أهمية الدراسة وأسباب اختيار الموضوع

لقد قامت فكرة البحث على محاولة البابوية لفرض التبعية الإقطاعية على إنجلترا، والسعى لرصد المناورات السياسية والدينية للبابوية لتحقيق ذلك، متسلحة بالصبر وبقرارات الحرمان والقطع التى أذاقت بهما ملوك إنجلترا صنوف الذل والهوان؛ حتى جعلت من التبعية الإقطاعية حقيقة واقعة لا يجرؤ أي ملك إنجليزى على إنكارها وإلا أصبح حقه الشرعى فى حكم إنجلترا محل شك، وعليه خصصت هذا البحث لتتبع ومناقشة قضية التبعية الإقطاعية لهذه المملكة للكرسى البابوى فى روما، وأقصد بذلك التبعية المعروفة بكامل أشكالها فى نظام الإقطاع فى غرب أوروبا؛ إذ إنها لا تأخذ شكل العلاقة بين الأجير والمستأجر ولا التبعية السياسية المجردة.

وبالنسبة للمنهج المتبع فى البحث فقد انتهجت الباحثة المنهج التاريخي التحليلي، الاستنباطي للأحداث لكون البحث فى حد ذاته قائماً على تتبع فكرة التبعية الإقطاعية تحديداً وسعى البابوية لتحقيقها منذ البداية حتى نجحت فى تحقيق الأمر بعد مناورات طويلة ومريرة مع ملوك إنجلترا، وهو ما استلزم استنباطها من أحداث قد لا تأتى على ذكرها صراحةً، لكنها تظهر

فى أحداث سياسية وردود أفعال متباينة بين ملوك إنجلترا والبابوية آنذاك. مع التأكيد على أن هدف البحث رصد قضية التبعية الإقطاعية بين إنجلترا بوصفها تابعاً والبابوية بوصفها سيداً متبوعاً يريد فرض تلك التبعيه على ملوك إنجلترا باللين تارة وبالشدة تارة أخرى، وعلى الرغم من أنه لا يعنينا فى هذا البحث النمط أو العلاقة الإقطاعية بين الملك وأتباعه من النبلاء والإقطاعيين فى إنجلترا، إلا أنه فى بعض الأحيان نتعرض لها بسبب تدخل سياسة البابوية مع ملوك إنجلترا وتلاعبها بأضلاع الهرم الإقطاعى فى إنجلترا من رجال دين ونبلاء وبارونات بما يخدم مصالحها ويحقق هدفها.

الدراسات السابقة

ويعتبر كتاب Papal Government and England During the Pontificate of Honorius III (1216- 1227) لجان سايرس من أهم المراجع التى اطلعت عليها الباحثة والتى دعمت فكرة الباحثة عن تحول إنجلترا لإقطاعية بابوية كنتيجة للأحداث والدلائل التى تم تناولها فى البحث؛ فى فترة بابوية هونوريوس الثالث Honorius III (١٢١٦- ١٢٢٧م) موضحاً إلتزام إنجلترا بسداد الإيجار الإقطاعى feudal payment بعد أن دفع الملك يوحنا وخلفاؤه هذا الإيجار [١] وعلى الرغم من أن الكتاب يتناول سياسة إنجلترا فى عهد البابا هونوريوس الثالث؛ أى بعد الفترة الزمنية التى ينصب عليها موضوع البحث إلا أنه أنار الطريق أمام الباحثة لمعرفة نتائج سياسة البابوية وتتبع مكتساباتها التى جنت ثمارها من خلال التخطيط والمناورات السياسية مع ملوك إنجلترا وتتبع مدى انتظام إنجلترا فى دفع الإيجار الإقطاعى للبابوية.

ومن الدراسات التى تناولت التاريخ الإقطاعى لإنجلترا كتاب فرانك بارلو The Feudal Kingdom of England على مدار الفترة من عام ١٠٤٢م حتى عام ١٢١٦م وعلى الرغم من أن الدراسة تركز فى مضمونها على العلاقة الإقطاعية بين

---

(١) Jane E Sayers: Papal Government and England During the Pontificate of Honorius III (1216- 1227), Cambridge studies in medieval life & thought, third series, vol. 21, Cambridge University Press, first published, 1984.

الملك الإنجليزى وأتباعه من النبلاء والبارونات منذ عهد الملك الأنجلوسكسونى إدوارد المعترف (١٠٤٢- ١٠٦٦م) حتى عصر الملك يوحنا، وعلى الرغم من تناول الدراسة الحياة الإقطاعية داخل إنجلترا من الناحية الإقتصادية والدينية والثقافية والإجتماعية إلا أنها ظلت بعيدة عن رصد أطماع البابوية وطموحاتها الإقطاعية، ربما لأن الدراسة تتركز على الأوضاع الداخلية فى إنجلترا منذ العصر الأنجلوسكسونى مرورا بالعصر النورمانى وعصر الفوضى وأسرة البلانتاجنت حتى عصر الملك يوحنا، ومع ذلك فقد لعبت دوراً قيماً فى إنارة الطريق أمام الباحثة لفهم الأوضاع الداخلية والمشاكل التى كثيراً ما أفسدت العلاقة بين ملوك إنجلترا وأتباعهم الإقطاعيين سواء من العلمانيين أو رجال الدين، وكيف استغلتها البابوية كورقة ضغط على ملوك إنجلترا حتى نجحت أخيراً فى إخضاع إنجلترا للتبعية البابوية فى عصر الملك يوحنا [٢].

وهناك كتاب بندكت وايدمان عن "السيادة البابوية والأمراء الأوروبيين" وهو دراسة حديثة صدرت فى عام ٢٠٢٢م ويتناول فكرة تتبع البابوية لفرض سيادتها على أوروبا وخاصة فى إيطاليا وإنجلترا وأراجون عن طريق فرض حمايتها على من يرغب من ملوك أوروبا وكيف تعاملت البابوية لتحقيق هدفها ما بين النظرية والتطبيق بحيث جعلت فكرة السمو البابوى وسيلة لتطبيق التبعية الإقطاعية وفرضها باللين تارة حينما يطالب الأمراء أو الملوك من تلقاء أنفسهم بالحصول على الحماية البابوية أو الوصاية البابوية على الحكام ممن هم دون السن القانونى الذى يؤهلهم لاعتلاء العرش، وكيف حققت البابوية التبعية الإقطاعية بالشدة تارة أخرى حينما فرضتها بدون رغبة الملوك أو الأمراء كما حدث مع إنجلترا، وعلى الرغم من أن تركيز الدراسة على البابوية وإيطاليا ومملكة أراجون من منظور الحماية أو الوصاية على الحكام دون سن الرشد الذى يؤهلهم لاعتلاء العرش أو التبعية الإقطاعية لممتلكات البابوية فى إيطاليا، إلا أنها

(٢) Frank Barlow: The Feudal Kingdom of England (1042- 1216), fifth edition, Routledge, London & New York, 1999.

تناولت قضية تبعية إنجلترا الإقطاعية فى مقتطفات قليلة [٣]، لكنها طمأنت الباحثة على صلاحية الفكرة والمضى قدما فى عمل البحث وتتبع فكرة التبعية الإقطاعية فى إنجلترا على وجه التحديد.

ولما كان سعى البابوية لإخضاع إنجلترا للتبعية الإقطاعية feudal vassalage هى محور البحث توجب علينا ضبط المصطلح، فوفقاً لما جرت عليه العادة بأن يقدم التابع للمتبوع يمين الطاعة والتبعية ثم يمين الولاء والإخلاص Fidelitta وذلك فى احتفال واحد من شقين الشق الأول أن يركع التابع أمام سيده واضعا يده فى يده معتبرا نفسه رجله ويتعهد بالدفاع عنه ضد الجميع فى الحياة وحتى الموت وبعد ذلك يقول السيد بأنه قبل فلانا تابعا له ويبدو أن هذا الاحتفال كان خاضعاً فى جوهره للطقوس الوثنية الخاصة بالبرابرة الجرمان بهدف دخول الفرد تحت سلطة رئيس القبيلة، أما الشق الثانى من الاحتفال فقد تم استحداثه بعد انتشار الديانة المسيحية لإضافة صبغة دينية على هذا اليمين، ويقدم التابع يمين الولاء والاخلاص لسيده ويقسم على الكتاب المقدس والذخائر الدينية بما يؤكد العهد الذى قطعه على نفسه ولم يكن لهذا العهد صيغة معينة ولكن مضمونه لا يخرج عن هذا المعنى، وقد كانت رابطة التابع الإقطاعى بسيده قوية لدرجة أنها وُصفت بأنها أقوى من رابطة الابن بأبيه، وفى المقابل يقوم السيد بتوزيع قطع من الأراضى على أتباعه كنوع من الأجر مقابل خدماتهم التى يقدمونها، وبالنسبة للمجتمع الأنجلوسكسونى فى إنجلترا فقد كان قائماً على نظام إقطاعى على رأسه الملك والطبقة الأرستقراطية فى مجتمع زراعى اقطاعى تدعمه القوة العلمانية والدينية على السواء [٤].

---

[٣] Benedict Wiedemann: Papal Overlordship and European Princes, 1000–1270, first edition, Oxford University Press, oxford U.K, 2022.

[٤] كولتون ج. ج: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة جويف نسيم يوسف،الطبعة الثالثة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ٤١– ٤٢ ؛

Frank Barlow: op. cit, pp. 5 – 6; Carl Stephenson: Mediaeval Feudalism, Cornell University Press, London, 1942, pp. 10, 12 – 13.

الهبات والعطايا للبابوية فى عهد الملوك الأنجلوسكسون

لقد تعامل الملوك الأنجلوسكسون بسخاء وكرم شديدين مع البابوية، حتى إنهم تباهوا وتباروا فى تقديم الهبات والعطايا عن طيب خاطر من أجل خلاص أرواحهم وأرواح آبائهم؛ وقد أفاضت المصادر الإنجليزية المعاصرة فى ذكر العطايا والأموال التى تم إهداؤها طوعاً إلى البابوية؛ وقد تجلى ذلك حينما أرسل الملك كوينوولف Coenwulf ملك مرسيا (٧٩٦-٨٢١م) إلى البابا ليو الثالث Leo III (٧٩٥- ٨١٦م) مبلغ يقدر بمائة وعشرين منقوشة Mancus [٥] ذهبية مقابل أن يمنحه البابا بركته ويعتبره ابناً له. وهناك الملك الأنجلوسكسونى إثيلوولف Ethelwulf (٨٣٩- ٨٥٨م) الذى عُرف عنه السخاء الشديد فى حياته مع البابوية لدرجة أنه فى عام ٨٥٥م قدم عُشر دخل مملكته للبابوية، وبعد موته ترك وصية ذُكرت فى المصادر المعاصرة بأن الملك إثيلوولف أوصى بإرسال ثلاثمائة منقوشة ذهبية إلى روما كل عام على أن يتم توزيعها على النحو التالى: مائة منقوشة ذهبية لكنيسة بطرس الرسول، ومائة منقوشة ذهبية

---

[٥] كلمة "Mancus" أصلها مشتق من الفعل العربى "نقش" وبالإنجليزية « Engraved » للدلالة علي النقش والكتابة العربية البارزة التى رسمت علي الدينار الإسلامى، وهو وصف استخدمته المصادر التاريخية المعاصرة في غرب أوروبا فى العصور الوسطى وكتبته لاتينياً بنطقه العربي Mancus أى "المنقوش"، وبعد أن كانت المنقوشة كلمة لوصف الدينار الإسلامى أصبحت فيما بعد عملة مستقلة تحاكيه وظلت متداولة في غرب أوروبا حتى تم إيقاف التعامل بها فى القرن الثانى عشر الميلادى تقريباً، وكانت تقدر بـ ٤,٢٥ جرام من الذهب، أو ما يكافئ ٣٠ بنس من الفضة – وفي نهاية القرن الثامن في عهد الأسرة الكارولنجية كان البنس يكافئ ٢جرام، وأحياناً يساوى ١,٧٠ جراماً –، حيث ساد اعتقاد أنها تكافئ دينار ذهب من العملة الإسلامية، وكانت المنقوشة أخف وزناً من الصولدي البيزنطى. وهناك من يري أن منقوشة مأخوذة من الكلمة اللاتينية "Mancus " وتعنى "defective" ، وتعنى المعيب أى به عيب ، وهناك من يري أنها مشتقة من اللغة الفرنسية القديمة "Mangon" وقد استخدمت للتعبير عن خاتم أو أسورة من العملات الذهبية ، وخلاصة القول إنه حتى من يري هذا الرأى لاينكر وجود عملة تسمى المنقوشة (٤,٢٥جرام ذهب) كانت تنافس الصولدي البيزنطى الذي تقدر قيمته بـ (٤,٥٥جرام ذهب). لمزيد من التفاصيل انظر: إيمان عبد التواب خلاوى: العملات العابرة للحدود في غرب أوروبا في العصر الوسيط: العملة الإسلامية المنقوشة نموذجا ، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر، العدد ٣٩، الاصدار الثانى الجزء الخامس ،١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م، ص ٤٢١١- ٤٢١٣، ٤٢٤٣؛

Mark Blackburn, Philip Grierson: Medieval European Coinage "The Early Middle Ages 5 th –10 th Centuries", Vol. 1, Cambridge University Press, Cambridge, 1991, p. 327; Urban T. Holmes: Old French Mangon, Anglo-Saxon Mancus, Late Latin Mancussus, Mancosus, Mancessus, etc., in Modern Language Association, Vol. 53, No. 1 (Mar., 1938), p. 34 –35, 37.

تخصص لشراء الزيت الذى توقد به مصابيح كنيسة القديس بولس الرسول فى عشية عيد الفصح، ومائة منقوشة ذهبية تخصص للبابا شخصياً [٦].

استمرت حالة السخاء والعطاء المبالغ فيه من الملوك الأنجلوسكسون حتى بلغ الأمر ذروته فى عهد الملك ألفريد العظيم Alfred the Great (٨٧١- ٨٩٩م)، ورغم ما كانت تعانيه إنجلترا من هجمات وحروب مع الدانيين [٧] إلا أن الملك ألفريد لم يقطع عادة أسلافه ، وفى أحلك الظروف استمر فى إرسال الهبات والصدقات إلى البابوية فى روما كما حدث فى عام ٨٨٣م ، وكذلك فى عام ٨٧٨م وفى عام ٨٨٨م، ٨٩٠م، والجدير بالملاحظة أن الملك ألفريد لم يرسل هبات أو صدقات إلى روما فى عام ٨٨٩م ؛ فى سابقة سجلتها الحولية الأنجلوسكسونية حينما أثبتت أنه لم يتم ارسال صدقات إلى روما فى هذا العام برغم أن الملك ألفريد أرسل رسولين بخطاب إلى البابا فى روما، لكن حولية روجر أف ويندوفر أنكرت هذا الادعاء وأكد أن الملك ألفريد أرسل بالفعل فى عام ٨٨٩م وأنه لم يكتف بإرسال الصدقات لروما بل أرسل جزء

---

[٦] William of Malmesbury: Chronicale of The Kings of England From The Earliest period to The Reign of King Stephen, Tran. By J. A. Giles, London , 1847, p. 82; Asser of saint David's : Annals of The Reign Alfred The Great "from A.D. 849 to 887" , in Six Old English Chronicles , ed. & Tran. By J. A. Giles, London , 1884, pp. 46, 49 ; Roger of Wendover : Roger of Wendover's Flowers of History, Trans. by Giles J. A., vol.1, London , 1849 , pp. 186 - 187.

[٧] الدانيون هم فرع من الفايكنج – غزاة الشمال– الذين استقروا فى جزيرة اسكندیناوه والبحر البلطى وقد أطلق عليهم أهل إنجلترا من الأنجلوسكسون هذا الاسم أثناء غاراتهم على إنجلترا ، وتعتبر حاجة الدانيين إلى الطعام بالإضافة إلى رغبتهم فى التجارة هى السبب الرئيسى لخروجهم من بلادهم واعتمادهم على طريقة السلب والنهب فى هيئة غارات وهجمات خاطفة كانت تشن على إنجلترا ابتداء من منتصف القرن الثامن الميلادى وحتى منتصف القرن التاسع الميلادى، ولكن بعد ذلك تحولت الغارات الخاطفة إلى هجمات منظمة بغرض الاستقرار والاستيطان وساعدهم على ذلك تفوقهم البحرى وسفنهم القوية بالإضافة لطول السواحل الإنجليزية فى الشمال، وكثرة الهجمات التى توالت بشكل سريع على السواحل الإنجليزية فشكلت نوعاً من الإمدادات والتعزيزات المتوالية لبعضها البعض، فى الوقت الذى افتقرت السواحل الإنجليزية للحماية بسبب ضعف الأسطول الأنجلوسكسونى وعدم الاهتمام ببناء السفن القادرة على التصدى لتلك الهجمات قبل عهد الملك ألفريد. انظر:
إبراهيم خميس سلامة: ملامح الغزو الداني لإنجلترا في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي في ضوء الوثائق الإنجليزية، فى مجلة بحوث كلية الآداب – جامعة المنوفية، مج. الرابع ، العدد ١٤، أغسطس ١٩٩٣م، ص ٢٣٤- ٢٣٧.

من ثروته الخاصة إلى روما وإلى بيت المقدس [٨] مما يدل أن هناك حالة سخاء مبالغ فيها جعلت أموال ومقدرات الخزانة الأنجلوسكسونية تتدفق على البابوية .

وقد تفاقمت حالة السخاء تجاه البابوية من الملوك الأنجلوسكسونيين لدرجة ابتكار نوع جديد من الضرائب تعرف باسم ضريبة بنس بطرس Peter's Pence [٩] تلك الضريبة التى ابتدعتها إنجلترا وألزمت بها الشعب الإنجليزى، ثم انتقلت من إنجلترا إلى باقى الغرب الأوروبى؛ وقد أصبحت من أهم مصادر دخل البابوية التى تعتمد عليها كمورد أساسى. ونستنتج مما سبق أن ضريبة بنس بطرس التى ظهرت فى مبتدئها كإحدى العطايا أو الهبات الإنجليزية التى يتم دفعها طوعاً إلى البابوية، تحولت بمرور الوقت إلى ضريبة مالية وإلتزام إنجليزى وأوروبى يشكل أهم مصادر دخل البابوية الذى يتم دفعها بإنتظام.

بيد أن حالة السخاء الأنجلوسكسونى والمبالغة فى إرسال الهبات والعطايا والضرائب المستحدثة إلى روما مقارنةً بباقى الغرب الأوروبى آنذاك، يُعد ظاهرة تحتاج إلى تفسير منطقى لأن البابوية اعتبرت هذا السخاء حقاً مكتسباً أدخل إنجلترا فى دائرة الأطماع الإقطاعية للبابوية؛

---

(٨) Anonymous: The Anglo – Saxon Chronicle, Trans. By J. A. Giles, ed. from the translation in Monumenta Historica Britannica & other version, London, 1912, pp. 55, 57; Roger of Wendover: op.cit, vol. 1, pp. 215, 225, 226.

(٩) أول من دفع بنسات بطرس هم الأنجلو ساكسون وهو تبرع يتم إعطاؤه سنويا، بحيث يدفع كل رب بيت له أرض بنساً واحداً سنويا كتبرع لكنيسة بطرس الرسول – في روما – فى أول شهر أغسطس من كل عام، وقد جري ذلك في إنجلترا وشعوب شمال أوروبا، وما لبث أن سارت باقي شعوب أوروبا علي نهج الأنجلوساكسون، وقد تفاوتت الآراء حول بداية ظهور ينسات بطرس فيرى البعض أنها بدأت عام ٧٢٠م فى عهد الملك الأنجلوسكسونى إنا Ine of Wessex (٦٨٩– ٧٢٦م)، وهناك من يذهب إلى أنها فرضت عام ٨٥٥م فى عهد الملك إثيلولف **Æthelwulf** (٨٣٩– ٨٥٨م) واستمرت إنجلترا تدفع تلك الضريبة حتى عهد الملك هنرى الثامن Henry VIII (١٥٠٩– ١٥٤٧م) ولم تتعثر إنجلترا فى جمعها إلا فى أوقات الأوبئة والطاعون، وعلى الرغم من أن بنس بطرس بدأ كصدقة تدفع اختيارياً إلا أنه تحول إلى ضريبة تدفع إجبارياً، ويشرف على جمعها ملوك إنجلترا ويشرفون على إرسالها إلى البابوية بشكل مباشر، وفى عام ١١٥٩م اكتملت منظومة إدارة بنسات بطرس وتجميعها من إنجلترا ؛ حيث قام البابا ألكسندر الثالث Alexander III (١١٥٩– ١١٨١م) بتنظيم طريقة جمع الضريبة على يد مبعوثين بابويين ترسلهم البابوية لهذا الغرض انظر :

Hubert Burke: Historical Portraits of the Tudor Dynasty and the Reformation Period, vol. 3, London, 1883, pp. 156 – 157; see also C. Ency : Article of Peter's pence.

بمعنى أن البابوية التى استحوذت على أراضى وممتلكات إقطاعية فى إيطاليا بمقتضى ما يعرف بهبة قنسطنطين Donation of Constantine أرادت أن تجعل من الهبات والعطايا الإنجليزية على وجه التحديد رافداً يصب فى خزانة البابوية Papal Patrimony [١٠] على غرار ممتلكاتها فى إيطاليا.

ولعل السؤال الذى يتبادر إلى الأذهان الأن لماذا كانت أموال إنجلترا على وجه التحديد مطمعاً للبابوية أكثر من باقى ممالك الغرب الأوروبى؟ ولم رضخت إنجلترا عن طيب خاطر لهذا الابتزاز البابوي؟. والإجابة تتلخص فى أن إنجلترا تمتلك رصيدا وفيراً من الذهب استخدمته فى صك عملات ذهبية خالصة ذات جودة عالية وكانت ترسل منه إلى البابوية فى صورة صدقات وهبات توزع على البابوات والكنائس فى روما وكثيراً ما أبدى البابوات رغبتهم فى إرسال تلك العملات الأنجلوسكسونية على وجه التحديد لأن البابوية كانت تعانى من تدنى العملات الذهبية فى الغرب الأوروبى وكان أغلبها من الفضة ومعادن أخرى رديئة كما تم التلاعب فى قيمتها [١١]

---

[١٠] وفقاً لهبة قنسطنطين Donation of Constantine المزعومة فإن الامبراطور قنسطنطين أباح للبابوية أن تمتلك أراضى وممتلكات في وسط إيطاليا ، بحيث يكون لها حق التصرف في الدخل والأموال التي تأتي منها، بوصفها أراضى تابعة للقديس بطرس، وبمرور الوقت سارت بعض عائلات النبلاء داخل وخارج إيطاليا على حذو قنسطنطين، وتبرعت بالأراضي أو أن بعض العائلات انقرضت ولم تترك ورثة لأراضيها في إيطاليا بفعل الحروب أو الغزوات الجرمانية، وبالتالى آلت ممتلكاتهم للبابوية ، وقد ترتب علي ذلك أن تدفقت الأموال علي خزانة البابوية سواء من الضرائب أو أموال الإيجارات وقد انتشرت تلك الممتلكات في إيطاليا، وصقلية، وأنطاكيا، وآسيا الصغرى، وفي منطقة هيبو في شمال أفريقيا، وأرمينيا، بيد أن تلك الممتلكات مع بداية القرن السابع توقفت عن منح أموالها للبابوية في روما؛ حيث فضلت أن تمنحها لكنيسة القسطنطينية، ومع اتساع حركة الفتوح الإسلامية وسقوط صقلية وجنوب إيطاليا في يد المسلمين فقدت البابوية جزءاً كبيراً من دخلها، إلي أن استطاع النورمان أن يستعيدوا تلك الممتلكات من المسلمين، فحكموا جنوب إيطاليا وصقلية بوصفهم تابعين إقطاعيين للبابوية . لمزيد من التفاصيل انظر :

Robinson S.: Reform and the Church (1073 −1122), in N. Cam. Med. His , vol. 4, Cambridge University Press, Cambridge, pp. 288 – 289 .

[١١] في بداية القرن الثامن الميلادى انخفض وزن الصولدى ودرجة نقائه وتم التلاعب فى جودته ، وبحلول منتصف القرن الثامن أصبح وزن الصولدى الذي يسك فى سيركواز Syracuse – جنوب صقلية – لا يتجاوز ٣,٥ جرام، لدرجة أن البابا أدريان الأول Adrian I (٧٧٢– ٧٩٥م) استبدل الذهب المستخدم في سك الصولدى البيزنطى بالفضة ، وبنهاية القرن التاسع ازداد التلاعب في وزن العملة فكان الصولدى الذى يسك فى مدينة سيركواز يقدر بـ ٣,٨٧جراماً ، بينما نظيره الذي يسك في القسطنطينية يعادل ٤,٤٠ جراماً ، مما يعنى أن الصولدى به عيب يتمثل في نقص الوزن عما هو متعارف عليه ، ولكى يتم تمييز الصولدى البيزنطى الأصلى

فى الوقت الذى توالت الهدايا والهبات الأنجلوسكسونية على البابوية والتى قدمتها إنجلترا على هيئة عملات ذهبية خالصة عرفت باسم العملة المنقوشة.

وعلى الجانب الآخر يمكننا أن نستشعر جانبا معنويا لدى إنجلترا يبرر حالة السخاء فى العطايا والهبات للبابوية وهى أنه ربما كان لبعد المسافة بين البابوية وإنجلترا وإنعزالها جغرافياً عن أوروبا، فى الوقت الذى اعتنق فيه الأنجلوسكسون الديانة المسيحية فى مرحلة متأخرة زمنياً إلى حد ما مقارنة بباقى ممالك الغرب الأوروبى، وهو ما شكل رغبة دفينة لدى إنجلترا وملوكها فى إيجاد رابط دينى معنوى مع البابوية راعية المسيحية الكاثوليكية فى الغرب الأوروبى آنذاك؛ فكان السخاء ومنح العطايا والهبات الإنجليزية هو الطريقة المثلى لنيل الحظوة والترحيب البابوى.

مطالبة البابوية بتبعية إنجلترا عقب الفتح النورمانى

لقد أرادت البابوية لحالة السخاء الأنجلوسكسونى أن تستمر للأبد، لكنها سرعان ما تأثرت بالإضطرابات السياسية أواخر الحقبة الأنجلوسكسونية، وتحديداً حينما تولى إدوارد المعترف حكم إنجلترا حينما رأى بريتولد أسقف رامسبورى Brihtwold of Ramsbury (١٠٠٥– ١٠٤٥م) رؤية أبلغها للملك إدوارد المعترف بأن بطرس الرسول يضمن له عرش إنجلترا طالما نذر نفسه للعفة وآلا يتزوج، وحينما سأله ماذا عن الملوك الذين سيأتون بعد إدوراد أجاب بطرس الرسول فى الرؤية: "بأن إنجلترا هى ملكوت الرب

عن الصولدى الذى يسك في وسط وشمال إيطاليا كان يطلق عليه solidus mancus أى الصولدى المعيب defective أو ناقص الوزن ، كما أن البابوية أصبحت تسك عملاتها من معدن الفضة على غرار الدينار الفضى للبابا حنا الثامن John VIII (٨٧٢–٨٨٢م) وبالنسبة للإمبراطورية الكارولنجية فإنه منذ بداية النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى حدث تغير فى مجال التعامل بالعملة حيث شهدت الأراضى الكارولنجية انسحاباً للنقد الكارولنجى بسبب عدم الثبات أو ضعف الاستقرار النقدى فاعتمدت الدولة الكارولنجية على العملات الفضية على حساب العملة الذهبية التى لم تعد تسك فى البلاد آنذاك. انظر:

Philip Grierson : Carolingian Europe and the Arabs "the Myth of the Mancus", Revue belge de Philologie et d'Histoire Année 1954, p. 1072; Vivien Prigent: Le Mythe du Mancus et les Origines de L'Economie, in **R.N**, Actes de la Table Ronde, Autour de l'oeuvre de Pierre Bastien. Monnayage impérial romain – Corpus – Ateliers "13-14 mai 2013", Lyon, 2014 , p. 706 – 707.

وهو يدبر لها تدبيراً آخر مستقبلا" [١٢] ومن حينها ومن يجلس على كرسى القديس بطرس في روما يدبر لإنجلترا الخطط حتى يضمها إلى ممتاكات الكرسى البابوى.

بيد أن الفرصة لاحت مرة أخرى على يد البابا الكسندر الثاني Pope Alexander II (١٠٦١- ١٠٧٣م) حينما أراد استغلال حاجة وليم الفاتحConqueror (١٠٦٦ – ١٠٨٧م) لنيل مباركته ودعمه لغزو إنجلترا، لاكتساب شرعية لحكمه إنجلترا فأرسل له البابا ألكسندر قائلاً:" إن غزو إنجلترا سيتم بإرادة الرب وأن الملك وليم سيتلقي إنجلترا من االقديس بطرس ولا أحد غيره"؛ وكدليل علي دعم البابوية أرسل لوليم خاتماً ثميناً وقطعة حجارة، تحتها بعض شعيرات قيل أنها من رأس بطرس الرسول، ليأمره بغزو إنجلترا والاحتفاظ بها باسم بطرس الرسول [١٣]. وبتحليل ما سبق يتضح أن البابوية تحاول انتزاع اعتراف وليم الفاتح وإيهامه بأنه يحكم إنجلترا كتابع إقطاعى، ولضمان تحقيق ذلك تم إرسال الذخائر المقدسة وبعض شعيرات القديس بطرس ليقسم عليها وليم الفاتح يمين الولاء والتبعية واستكمال صيغة اليمين الإقطاعى الذى يشترط فيه أن يكون القسم على الكتاب المقدس والذخائر المقدسة كما جرى العرف آنذاك [١٤] فى سابقة خطيرة فى تاريخ إنجلترا، لتكون على غرار الولايات البابوية فى وسط وجنوب إيطاليا –على سبيل المثال– بما يترتب على ذلك من إلتزامات مالية وإقطاعية يجب توريدها إلى خزانة البابوية كل عام.

وفى سياق متصل يتبين اصابة الملك وليم الفاتح بحالة من الرهبة بسبب مرسوم البابوية الذى يمنحه الحق فى إنجلترا؛ لأنه على حد وصف أحد المصادر المعاصرة لم يستطع الدخول إلى إنجلترا إلا بعد الحصول على المرسوم البابوى الذى يبارك غزو إنجلترا ليتمكن من اجتياح السواحل الإنجليزية إلى أن انتهى الأمر بتوجهه إلى لندن فى حضور لفيف من الأساقفة حيث تم

---

(١٢) Frank Barlow: op.cit., pp. 61- 62.

(١٣) Master Wace: Master Wace, His Chronicle of The Norman Conquest From Roman de Rou, Translated with notes and illustration by Edgar Taylor, London, 1837, pp. 113, 115.

(١٤) كولتون ج. ج: مرجع سابق ، ص ٤١- ٤٢ .

تتويجه ملكا على إنجلترا [١٥]. وبناء على ما سبق يتجلى لنا أن فكرة المرسوم البابوى الذى تُمنح إنجلترا بمقتضاه إلى وليم النورمانى يعد بمثابة سند إيجار إقطاعى وأن المانح هنا هو البابوية التى تعتبر المالك الإقطاعى؛ وبالتالى أدرك وليم الفاتح أن هذا المرسوم هو وثيقة شرعيته ومن المنطقى أن البابوية كما منحته له يمكن أن تنتزعه وتمنحه لغيره، وبما أن البابوية لا تملك قوة عسكرية أو تابعاً إقطاعياً يدير إنجلترا لصالحها كان وليم النورمانى هو البديل المنطقى والمرشح المثالى فهو مجرد دوق فرنسى سيتم رفعه على العرش الإنجليزى لإدارة البلاد لصالح البابوية.

سرعان ما أثبتت الأحداث حقيقة أطماع البابوية على أرض الواقع وأنها تبحث عن السيادة الإقطاعية على إنجلترا لا السيادة الروحية فقط؛ وقد تجلى ذلك حينما أرسل البابا جريجورى السابع السابع Gregory VII (١٠٧٣- ١٠٨٥م) فى عام ١٠٧٩م ليطالب الملك وليم الفاتح بأن يقسم له يمين الولاء بوصف إنجلترا إقطاعية بابوية كما طالبه بالضرائب والعطايا المقررة للبابوية وخاصة ضريبة بنس بطرس، وعلى الرغم من عدم وصول هذا الخطاب إلى أيدينا إلا أن رد الملك وليم الفاتح على البابا جريجورى السابع هو ما وصل إلينا ومن خلال رده تبين لنا محتوى رسالة البابوية حيث رد الملك وليم على رسالة البابا قائلاً: "أن هوبرت الأب الأقدس جاء إلي إنجلترا بوصفه مبعوثاً بابوياً، لكي يطلب مني الولاء لك ولخلفائك، كما طلب أن نعيد التفكير في مسألة الأموال التي كان يدفعها أسلافي للبابوية –بنس بطرس– وأنا أوافق علي طلب واحد دون الآخر، فأنا لاأوافق علي القسم بالولاء للبابوية ولم يسبق لي أن وعدت بهذا أبداً، وبالنسبة لموضوع الأموال فإنه قد أهمل جمعها لمدة ثلاث سنوات لأنني كنت في فرنسا ولكني عدت الآن بفضل الرب إلي مملكتي، وسأرسل بصحبة المبعوث البابوي هوبرت ما تم جمعه بالفعل، أما الباقي فسأرسله إليكم مع رئيس الأساقفة لانفرانك Lanfranc رئيس أساقفة كانتربوري (١٠٧٠- ١٠٨٩م) المؤتمن لدينا عندما تتاح الفرصة لذلك، صلّ لمملكتنا وأنا أحبكم برغبة صادقة وأستمع لكم طواعية" [١٦].

---

(١٥) Ingulph: Ingulph's Chronicle of Abbey of Croyland with continuations by Peter of Blois and Anonymous Writers, trans. From Latin with Notes by Henry T. Riley, London, 1854, pp. 139 – 140.

(١٦) William the Conqueror: Letter of The King William the Conqueror to Pope Gregory VII in 1079, **in** Kings' Letters: From the Days of Alfred to the Coming of the

بتحليل الخطاب السابق بتضح إدراك الملك وليم الفاتح أن البابوية تحاول تقييده عن طريق احتوائه وانتزاع اعتراف منه كملك لإنجلترا بأن الهبات والعطايا الإنجليزية حق مكتسب للبابوية، كما حاول البابا الادعاء بأن الملك وليم الفاتح يتوجب عليه أن يقسم يمين الولاء هو وأسرته بوصفهم أتباعاً إقطاعيين وبذلك يتجلى لنا أن نظرة البابوية لملك إنجلترا لا كملك حر يدير إنجلترا باستقلالية، وإنما تابع إقطاعى عليه التزامات وواجبات للبابوية التى أصبحت سيداً إقطاعياً، لكن وليم الفاتح أنكر ادعاء البابوية جملةً وتفصيلا وهو ما يدفعنا إلى القول بأن البابوية أرادت أن تتذاكى وتستدرجه للاعتراف بالتبعية الإقطاعية للبابوية لكنه نفى ذلك نفياً قاطعاً حتى لا يترك لها فرصة للجدال مستقبلا فى هذا الشأن.

لقد أصبح خطاب البابا سابق الذكر هو الدليل القاطع على أن مخاوف وليم الفاتح لم تك هواجس بالتبعية الإنجليزية، وأن علاقته مع البابوية تحولت من التحالف إلى الارتياب لأن التهديد أصبح ملموساً موجهاً إلى حكم وليم الفاتح، كما ألقى بظلال الشك على ولاء رجال الكنيسة الإنجليزية؛ لأن فكرة ولاء رجال الدين المزدوج لكل من التاج الإنجليزى وللبابوية عصية على التصديق، فى ظل سعى البابوية للإصلاح عبر رجال الدين الموالين لها أو من سعت جاهدة لاستقطابهم عن طريق رفضها للتقليد العلمانى وإلزام رجال الدين بتلقى مراسيم تعيينهم من البابوية، وهى الإشكالية التى تصدى لها الملك وليم الفاتح بقطع الطريق على البابوية ومنع تدخلها فى الشئون الكنسية الإنجليزية ولو عن طريق مبعوثين بابويين تحت أى ذريعة، فمارس سلطاته كملك على الكنائس الإنجليزية حتى فى تقليد رؤساء الأساقفة ورجال الدين فى المناصب الكنسية الشاغرة؛ الأمر الذى ترتب علية ردة فعل بابوية معاكسة دفعت البابا جريجورى السابع للادعاء بتبعية إنجلترا الإقطاعية للبابوية؛ وهى السياسة التى رصدها المؤرخ ديفيد دوجلاس فى ثلاث إجراءات تجاه إنجلترا: الأولى أن يجبر رجال الدين فى إنجلترا ونورماندیا على القدوم إلى روما بشكل منتظم ودورى لمواجهة فكرة التقليد العلمانى لرجال الدين، ثانيا: انتزاع يمين الولاء

Tudors, vol. 1, Ed. by Robert Steele, Alexander Moring, The De La More Press, London, 1900 , pp. 5 – 6 .

الإقطاعى للبابوية من الملك وليم الفاتح، ثالثا: تقليل وتحجيم النفوذ العالمى لأسقفية رون Rouen –شمال فرنسا– [١٧] وهو ما يتوافق مع خطاب البابا سابق الذكر.

لقد استطاع وليم الفاتح أن ينفى عن نفسه التبعية الإقطاعية مؤكداً أنه لم ولن يقسم يمين الولاء للبابوية، لكنه لم يستطع وقف دفع ضريبة بنس بطرس لدرجة أنه فى عام ١٠٨٥م أصدر مجموعة من القوانين لتنظيم شئون البلاد كان أهمها ما يتعلق بجمع ضريبة بنس بطرس على كل من يمتلك قطعة أرض قيمتها ثلاثون بنساً، كما يتم تحصيلها ممن يملك ماشية فى الحقول قيمتها نصف مارك[١٨]، وكل من لديه منقولات تزيد عن نصف مارك يسدد بنس بطرس حتى تسدد لكنيسة القديس بطرس فى روما، وإن كل من يمتنع عن تسديد بنس بطرس ويثبت ذلك أمام القضاة سيتعرض لعقوبة الحرمان الكنسى Excommunication ويتم إجباره على دفع غرامة ثلاثين بنساً للأسقف ويدفع للملك أربعين شلناً shillings [١٩] .

يتبين لنا مما سبق أن الملك وليم النورمانى حينما وضع قانونا ينظم دفع ضريبة بنس بطرس للبابوية كان يسترضيها بدفع الأموال ليحفظ ماء وجهه ولا يضطر لتقديم تنازلات سياسية أو إقطاعية تنتقص من سلطته الملكية فى إنجلترا، فهو يدفع الأموال تحت ستار العطايا والهبات والصدقات ويشترى ود البابوية بالمال وفى نفس الوقت يضيق عليها الخناق سياسيا بمنع دخول أى موظف أو مبعوث بابوى إلى إنجلترا دون إذنه؛ ليهرب من إلحاح البابوية فى إخضاع إنجلترا للتبعية الإقطاعية وفى نفس الوقت تصبح تلك الأموال وسيلة للضغط على البابوية حين يمتنع عن إرسالها إن أراد البابا ازعاج إنجلترا وملوكها مستقبلاً، وهو ما يؤكد أن الملك وليم الفاتح كان يرى مواجهة البابوية بشأن التبعية الإقطاعية هو أمر قادم لا محالة.

---

(١٧) David C. Douglas: William the Conqueror "The Norman Impact Upon England", University of California Press, California & Berkely, 1964, pp. 337 – 338.

(١٨) ظهر المارك في أوروبا في القرن التاسع الميلادي، وتم استخدمه كوحدة قياس للأوزان في الذهب والفضة، كذلك كان المارك في إنجلترا وحدة حسابية لا عملة معدنية، وكان يقدر فى إنجلترا بعد الفتح النورمانى ب ١٦٠ بنساً إنجليزياً، والبنس يساوي ١,٤٦ جراماً من الفضة . انظر:

Henstra Dirk Jan: The Evolution of the Money Standard in Medieval Frisia: A Treatise on the History of the Systems of Money of Account in the former Frisia (600 – 1500), Groningen, 2000, pp. 185, 373.

(١٩) Ingulph : op. cit., p. 181.

جدير بالذكر أن استخدام ضريبة بنس بطرس كورقة ضغط مادية على البابوية قد تجلت فى أوضح صورها فى عهد الملك هنرى الثانى، لأن مشكلة التقليد العلمانى لرجال الدين ومحاولة فرض دستور كلارندون Clarendon الذى صدر في الخامس والعشرين من شهر يناير ١١٦٤م ماهى إلا إعادة إنتاج لمشكلة التصدى للتبعية الإنجليزية للبابوية ولكن فى ثوب التقليد العلمانى؛ حيث بادر بتأخير دفع مستحقات البابوية من ضريبة بنس بطرس التى جمعها ثم احتفظ بها ولم يرسلها إلى روما، نكايةً فى البابوية ورداً على أزمة دستور كلارندون (٢٠). لأن الهبات والعطايا والأموال التى ترسلها إنجلترا إذا ما تم مقارنتها بباقى ملوك الغرب الأوروبى فإنها أصبحت تشكل نصيباً لا يستهان به من مصادر دخل البابوية ، ولهذا أصبحت ورقة ضغط سياسية يلعب بها بملوك إنجلترا كلما استدعى الأمر ذلك.

ومصداقا لما سبق سنجد أن رئيس أساقفة كانتربورى توماس بكت Thomas Becket (١١٦٢-١١٧٠م) حينما راسل البابوية يستعديها على مخططات هنرى الثانى، بادر إلى كشف مخطط الملك هنرى الثانى الرامى إلى تحجيم علاقة البابوية مع رجال الدين الإنجليز، وتكريس فكرة التقليد العلمانى للتحلل من قيود التبعية للبابوية لصالح الملكية الإنجليزية، كما أشار للبابوية بأن الطاعة العمياء لرجال الدين المؤيدين للمك هنرى الثانى جعلتهم يصنعون منه طاغية لن يرحمهم ولن يحفظ لهم قدرا وسينقلب عليهم إن آجلا أو عاجلا (٢١)، وليس خافياً على المدقق أن الفضل يرجع إلى توماس بكت ومراسلاته فى إدراك البابوية لمخططات الملك هنرى، ونفى أى ظن أو لبس فى سوء نية الملك ورغبته فى التحلل من قيود تبعية كنائس إنجلترا للبابوية، ولهذا كان على البابوية أن تنتظر الفرصة المواتية للرد على هذا الجموح.

لقد سنحت الفرصة للبابوية للرد على محاولات هنرى الثانى فى التمرد عليها حينما أراد تعيين ابنه هنرى الشاب شريكاً له فى الحكم وكلف روجر رئيس أساقفة يورك أن يقوم بهذا التتويج في كنيسة كانتربوري، لكن البابا ألكسندر الثالث ماطل ورفض هذا التتويج لأنه حق أصيل لرئيس أساقفة كانتربورى توماس بكت دون غيره، وإذا أراد هنرى الثانى أن يحصل على

(٢٠) Roger of Wendover: op. cit., vol. 1, pp. 539, 547.

(٢١) Thomas Becket: the statements made by the blessed archbishop Thomas before our lord the pope Roger of Wendover: op. cit., vol. 1, pp. 547- 548.

مبتغاه فلابد من عودة توماس بكت من منفاه فى فرنسا، وإلا فإن البابا سيصدر قرار الحرمان ضد الملك وقرار القطع على إنجلترا، وهو ما اضطر الملك هنرى الثانى إلى الإذعان للبابوية وقبول عودة توماس بكت [٢٢]، وبعد عودة توماس بكت إلى إنجلترا بوصفه رئيس أساقفة كانتربورى أراد أنصار الملك هنري الثاني أن يطالبوه برفع قرار الحرمان عنهم، لكن توماس بكت رفض إلا إذا وافق رجال الدين ممن طالتهم العقوبة بأن يقسموا يمين الولاء والطاعة للبابا وفق صيغة يقرها رئيس الأساقفة، لكن رجال الدين رفضوا ذلك بحجة أنهم لا يحق لهم أن يحلفوا هذا اليمين دون الحصول علي موافقة الملك لعدم وجود سابقة لمثل هذا الإجراء فى الكنيسة، وهو ما سبب حنقاً شديداً لدي الملك هنري الثاني الذي فاض به الكيل ولم يعد قادراً علي تحمل المزيد [٢٣].

ويستنتج مما سبق أن مطالبة توماس بكت أن يقسم الأساقفة ممن طالتهم عقوبة الحرمان يمين الولاء للبابوية ، وهو ما يعد حادثة خطيرة ليس لها سابقة تاريخية لأن توماس بكت يحاول إقرار تبعية إقطاعية من أساقفة إنجلترا إلى البابوية بموجب قسم إقطاعى، وعلى الرغم من أن السيادة الروحية وتبعية كنائس إنجلترا للبابوية أمر مفروغ منه ولا يوجد من ينافس البابوية فى ذلك، إلا أن توماس بكت هنا يريد يمين ولاء إقطاعى من رجال الدين كأتباع وأفصال إقطاعيين وبالتالى تصبح البابوية شريكة الملك هنرى الثانى فى حكم البلاد رغم أنفه .

على أية حال فإن القدر كان يعد للصراع بين توماس بكت والملك هنري الثاني نهاية مأساوية غير متوقعة حيث قُتل رئيس أساقفة كانتربوري توماس بكت علي يد أربعة فرسان أرادوا مجاملة الملك هنري الثاني فقاموا بقتله أمام المذبح في كنيسة كانتربوري في التاسع والعشرين من شهر ديسمبر ١١٧٠م، وعلي الرغم من أن الملك هنري الثاني كان من المتوقع أن تنتهي

---

(٢٢) Florence of Worcester: The Chronicle of Florence of Worcester" With The Two Continuations Comprising Annals of English History, From The Departure of The Romans to The Reign of Edward I", Trans. From Latin by Thomas Forester, A. M, London, 1854, p. 289; Roger of Hoveden: The Annals of Roger of Hoveden, Trans. by Henry T. Riley, vol.1, London, 1853, p. 330 ; Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, pp. 11 – 13 .

(٢٣) Ibid. , p. 15 .

مشاكله بموت توماس بكت إلا أن الأمور زادت تعقيداً لكونه أصبح متهماً بجريمة لم يرتكبها، وقد استغلت البابوية تلك الفرصة الذهبية ولم تسامح فى حق توماس بكت إلا بعد ابتزاز الملك هنرى الثانى والحصول على سلسلة من التنازلات، تراوحت مابين السماح لرجال الدين بتقديم الدعاوي أمام البابا وآلا يمنعهم الملك من التوجه لروما بدعاويهم، كما تعهد هنري الثاني بأن يحمل الصليب ويتوجه إلي القدس، وإنه إذا ما اقتضت الظروف عدم ذهابه إلي الشام فإنه ملزم بالاستئذان من البابا علي أن يقود بالإعداد لحملة لمحاربة المسلمين في أسبانيا، كما تعهد هنري الثاني بإعادة ممتلكات كنيسة كانتربوري، وفي المقابل تم إعلان براءة الملك هنري الثاني وتطهره من تهمة قتل توماس بكت فى الأول من أكتوبر عام ١١٧٢م [٢٤] .

لم تك مكتسبات البابوية من جريمة قتل توماس لتتم إلا بإذلال الملكية الإنجليزية ممثلة فى شخص الملك هنرى الثانى الذى وقع ضحية شعوره بالذنب وبالغ فى إذلال نفسه للتكفير عما حدث لدرجة السير حافى القدمين فى موكب سيراً على الأقدام لينحنى أمام قبر توماس بكت ويجلد ظهره بالسوط لثلاث أو خمس جلدات [٢٥]، والمتأمل فيما سبق سيرصد اذلالاً حقيقياً للملكية الإنجليزية لحساب البابوية فى روما فهذا الملك الذى جلد نفسه أمام مقبرة صديقه اللدود حينما وجه السوط نحو جسده كانت كل ضربة تقيد هيبته وسطوته المطلقة على البلاد وتجره نحو قيود التبعية للبابوية تلك القيود التى طالما تهرب منها مستترا خلف دستور كلارندون وصراعه العنيف مع توماس بكت.

لقد طويت قضية التبعية الإقطاعية وصراع الشد والجذب بين البابوية وإنجلترا فى عهد الملك ريتشارد Richard I (١١٨٩- ١١٩٩م) بعد توليه عرش البلاد لسببين رئيسيين أولاً: أن ريتشارد شارك فى الحملة الصليبية الثالثة على الأراضى المقدسة فى الشام ومن المعروف أن أى حملة صليبية لا تخرج إلا بمباركة البابا ثانياً: أن ريتشارد تم أسره لثلاث سنوات على يد ليوبولد الخامس دوق النمسا Leopold V Duke of Austria (١١٧٧- ١١٩٥م)، والذي سلمه بدوره إلي خصمه وعدوه اللدود الامبراطور الألماني هنري السادس (١١٩٠- ١١٩٧م)، وكانت والدة

(٢٤) Roger of Hoveden , vol. 1, pp. 355 – 356 ; Roger of Wendover :op. cit., vol. 2 ,pp. 17, 18 .

(٢٥) Ibid. ,p. 29.

الملك ريتشارد إليانور أُفْ أكوتين Eleanor of Aquitaine (١١٥٤- ١١٨٩م) تجمع له المال لتسديد الفدية وإطلاق سراحه، تلك الأموال التى تكفل النبلاء والكنائس والأديرة بدفعها[٢٦] لإطلاق سراح السيد الإقطاعى ملك إنجلترا؛ لذلك فإنه غالبا لم تدفع إنجلترا أية هبات أو عطايا للبابوية حيث كانت حرية الملك هى الأحق من البابوية بكل بنس يتم جمعه، وعلي الرغم من أن الملك الإنجليزي أطلق سراحه فيما بعد، إلا أن الثمن كان ضرائب فادحة أثقلت كاهل البلاد بحيث بدت إنجلترا وكأنه تم استنزافها وتفريغ خزائنها لدفع الفدية .

صراع البابوية لتحقيق التبعية الإنجليزية في عهد الملك يوحنا

كان الملك الإنجليزى يوحنا John (١١٩٩- ١٢١٦م) فى بداية عهده يرغب فى إظهار سلطته وقبضته المحكمة على البلاد؛ وكان الاختبار الأول لصلابته فى مواجهة البابوية مشكلة "الانتخاب المزدوج" [٢٧] التى شرح أبعادها متى أف ويستمنستر قائلاً: "أن ما حدث كان بذرة المحن والفضائح في إنجلترا التي لم تهدأ فيما بعد"؛ وذلك لأن البابا العنيد قوى الشكيمة إنوسنت الثالث **Innocent III (١١٩٨- ١٢١٦م)** جعل من نفسه طرفاً فى نزاع الملك يوحنا مع رجال الكنيسة فى إنجلترا؛ بل جعل الأمور تتفاقم حينما رفض ترشيح رينالد ويوحنا اسقف نورويش

---

(٢٦) Roger of Hoveden , vol. 2, p. 140; William of Newburgh: The History of William of Newburgh, Trans. From Latin by Joseph Stevenson, pp. 615- 616; Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, pp. 126, 128. 133.

(٢٧) قام بعض الرهبان في الكنيسة الديرية في كانتربوري بعد موت رئيس أساقفة كانتربورى هوبرت والتر Hubert Walter (١١٩٣- ١٢٠٥م) في قبره اختار هؤلاء الرهبان نائب رئيس الدير رينالدReginald ليكون رئيساً للأساقفة (١٢٠٥ – ١٢٠٦م) دون إذن الملك يوحنا أو علمه وتوجه إلى روما لتأكيد انتخابه من البابا ، بينما اختار الملك يوحنا يوحنا أف جراى John of Gray الذي كان يشغل منصب أسقف نورويش Norwich – شرق إنجلترا – (١٢٠٠- ١٢١٤م)، وقد وعد الملك أن يعطي الرهبان امتيازات كثيرة إذا ما أصغوا إليه ودعموا اختياره ليوحنا أسقف نورويش، ولدي عودة الرهبان إلي مقرهم اجتمعوا بإخوانهم في الدير واجتمعوا علي إرضاء الملك والتصالح معه عن طريق دعم اختياره ليوحنا أف جراي الأمر الذى ترتب عليه أزمة فى العلاقات الإنجليزية البابوية. انظر:

Matthew of Westminster: The Flowers of History "From The Beginning of The World to The year 1307" , vol. 2, Trans. Yonge , C. D., London, 1853 ,pp. 102 – 104; Roger of Wendover : op. cit., vol. 2 , pp. 215 .

لرئاسة أساقفة كانتربوري، ورد دعوي الطرفين في عام ١٢٠٧م ، وقال البابا أنوسنت الثالث: "أنه يرفض أن يظل القطيع بلا راعٍ " ولهذا فقد **اختار الكاردينال ستيفن لانجتون Stephen Langton (١١٥٠- ١٢٢٨م)**[٢٨]، وأضاف البابا قائلاً:" ربما تعتقدون أن اختياري خالف التقاليد لأنه لم يتم في كانتربوري بموافقة الملك، ولكنه ليس من المعتاد أن ينتظر البابا موافقة الملك علي انتخابات تجري في المقر الرسولي، ولهذا فإنه بموجب الطاعة الواجبة منكم وتحت طائلة قرار الحرمان نأمر الحاضرين سواء قل أو كثر عددهم أن يقبلوا برئيس الأساقفة ستيفن لانجنون بوصفه الراعي والأب"، وقد وافق الحاضرون علي قرار البابا علي مضض تحت وطأة التهديد بقرار الحرمان، وقام البابا أنوسنت الثالث شخصياً بتنصيب ستيفن لانجتون في يونيه ١٢٠٧م في مدينة فيتربو [٢٩]. لقد أطلت مشكلة التقليد العلمانى بوجهها من جديد ممثلة فى مشكلة الإنتخاب المزدوج، لكن المبادر هذه المرة لإشعال الموقف هو البابا إنوسنت الثالث الذى سعى لتحدى السلطة الملكية وتقليم مخالبها عن طريق التلويح بأسلحة البابوية التقليدية والتهديد بقرار الحرمان، فى إطار فكرة البابا لتأكيد التبعية الإنجليزية للبابوية كجزء من مشروع البابوية الأكبر لتحقيق السمو البابوى على ممالك الغرب الأوروبى.

---

[٢٨] ستيفن لانجتون إنجليزي الأصل، فوالده هو هنري لانجتون أحد كبار ملاك الأراضي في لينكولنشاير، وأخوه سيمون لانجتون الذي انتخب رئيساً لأساقفة يورك عام ١٢١٥م ، لكن البابا أنوسنت الثالث ألغي تلك الانتخابات، وقد عرف عن ستيفن لانجتون مهاراته في العلوم والآداب حيث حصل علي ماجستير في التعليم المدني والآداب ودكتوراه في اللاهوت من جامعة باريس، حيث عمل محاضراً في جامعة باريس حتي عام ١٢٠٦م ، وكان مقرباً من البابا أنوسنت الثالث الذي استدعاه إلي روما ومنحه رتبة كاردينال واختاره رئيساً لأساقفة كانتربوري، حيث أجري مراسم تكريسه في فيتربو يوليو ١٢٠٧م، وفي عام ١٢١٣م اعترف به الملك يوحنا رئيساً لأساقفة كانتربوري ، فأصبح ستيفن لانجتون جزءاً مهماً من التاريخ الإنجليزي ، حيث شارك في صياغة المجنا كارتا أو العهد الأعظم ١٢١٥م ، واستمر يلعب دوره السياسي في عهد الملك هنري الثالث حتي وفاته في عام ١٢٢٨م . لمزيد من التفاصيل أنظر

Roger of Wendover : op. cit., vol. 2 , p. 238 ; cf. also Folkestone Williams : Lives of the English Cardinals " Including Historical Notices of The Papal Court " , vol. 1 , The Second Book, Allen & Company, London, 1868, pp. Chap. 1 .

[٢٩] Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, p. 238; Annales monasterii de Waverleia (A.D. 1-1291), in Annales Monastici. vol. 2, ed. by Henry Richardes Luard, Longman, London, 1865, p. 259.

ولكى يخفف البابا من وطأة القرار على الملك يوحنا تظاهر بالرقة المصطنعة وبأنه يطلب منه استقبال الكاردينال ستيفن لانجتون ممتدحاً إياه بأنه يملك خصالاً حميدة أبرزها العدالة، والثبات عند الشدائد والحكمة في الظروف التي تسود فيها البلبلة، والزهد لأنه يملك شخصية لايمكن أن تضيع وسط بريق الذهب وأن هذه الصفات لن تفيد فقط في الشئون الدينية بل ستفيد الملك عند إدارته لشئون الحكم. وأضاف البابا أنه أبطل انتخاب يوحنا أسقف نورويش؛ وعندما قرأ الملك يوحنا هذه الرسالة غضب بشدة وأرسل اثنين من رجاله المعروفين بالقسوة والوحشية لطرد الرهبان من كانتربوري واتهمهم بالخيانة وصادر ممتلكاتهم وأراضيهم لقيامهم بانتخاب رئيس الأساقفة دون إذنه، بحجة أنهم استغلوا خزانة الأسقفية في تغطية نفقات الحصول علي تأكيد انتخاب يوحنا أسقف نورويش(٣٠). وبتحليل الخطاب السابق يتضح أن البابا أنوسنت الثالث حينما قدم ستيفن لانجتون للملك يوحنا وأخذ يعدد صفاته ومآثره، يبدو كمن يقدم شريكاً فى الحكم للملك يوحنا لا كرجل دين سيتولى رئاسة أسقفية كانتربورى، فها هو ذا يعدد مآثره من عدالة وثبات وحكمة وزهد بالاضافة إلي تلقيه التعليم الديني والعلماني، فما هى قيمة التعليم العلمانى لرجل دين، وهو ما أثار الشك عند الملك يوحنا وترك انطباعاً لديه بأنه يكفى رضا البابوية عن لانجتون حتى يعتبره الملك خصماً لا يؤتمن.

وفى سياق متصل سنلاحظ أن الملك يوحنا اعتبر خطاب البابا فيه تحدٍ لارادته الملكية، لأن إلغاء انتخاب يوحنا أسقف نورويش فيه تطاول على إرادة الملك، وبالتالى كان الرد المتوقع بأن الملك لايثق في ستيفن لانجتون الذي عرف عنه أنه كان عدوا للملك الإنجليزي في البلاط الفرنسي، كما أنه لايجوز له كملك أن يتسول الحكمة والعدالة من أحد لأنه أدري بشئون الحكم، وأنه مستعد أن يدافع عن مملكته وولي عهده حتي الموت، وأنه يهدد البابا بغلق طريق البحر أمام كل من يتجه إلي روما، وأنه علي البابا أن يدرك أن إنجلترا تمده بالأموال أكثر من أي بلد

(٣٠) Matthew of Westminster: op. cit., vol. 2, p. 107; Innocent III: Letter of Pope Innocent III to the king of England asking him to receive Stephen Langton already consecrated as Archbishop (1207), in Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, pp. 239 – 240 .

آخر[٣١]. وبتحليل خطاب الملك يوحنا سنجد أنه ركز فى رده على البابا إنوسنت الثالث على نقطتين مهمتين أولهما: التأكيد على رفض اختيار البابا لأنه ملك حر مستقل فى رأيه ولا يستجدى الحكمة أو يتسولها من أحد وأنه يرى فى ستيفن لانجتون الذى تلقى تعليمه فى باريس عدواً له ترعرع ونشأ فى البلاط الفرنسى، وثانيهما: التلويح والتهديد بالمال الذى يرسل إلى روما سواء من الهبات والعطايا أو الضرائب التى يتم إرسالها إلى البابوية، وبالتالى على البابا أن ينتبه حتى لا يحرم من السخاء والكرم المالى الذى لا يدانيه سخاء أية مملكة أخرى فى أوروبا، وبذلك يكون الملك يوحنا قد انتقل من مرحلة التحدث بدبلوماسية والتأدب المصطنع إلي مستوي آخر يتسم بالعدائية والتصعيد الممزوج بالتهديد العسكري والسياسي والاقتصادي حتى لا يعتقد البابا إنوسنت أنه نجح فى فرض إرادته وتحويل الملك يوحنا إلى تابع إقطاعى.

وكما هو متوقع كان رد البابا أنوسنت الثالث فى نفس مستوى التحدى الذى صّعد به الملك يوحنا وتيرة الأحداث، فأرسل خطاباً جمع بين اللين المصطنع والشدة معاً جاء فيه:" من أنوسنت خادم الرب حينما كتبت الرسالة إليكم بتواضع مع كل الاحترام لسموكم وجدنا أنك رددت عليها رداً متمرداً ومنفلتاً، وأنك تسعي للتقليل من كرامتنا مستنداً إلي أعذار تافهة وأن ستيفن لانجتون كان يتعلم في باريس ورقي إلي رتبة كاردينال ويجب أن تعلم أنه ولد في إنجلترا، وهو صادق في محبته لكم وأنه يجب عليك أن تحترمنا بالشكل الكافي كما نحترمك، ويبدو أنك تريد من يمدحونك وينافقوك وعليك أن تعلم أن أفضل الأسماك تعيش في المياه المضطربة، كما حدث مع الشهيد توماس بكت ولذا فعليك أن تتخلي عن العادة الخبيثة لملوك إنجلترا مثل أبيك وأخيك وأن تتواضع أمام رغبتنا [٣٢].

وبدراسة خطاب البابا إنوسنت الثالث للملك يوحنا سنلاحظ أنه يتحدث بصيغة الترغيب والترهيب فجاء الشق الأول من الخطاب هادئاً ليستميل العاطفة لدي الملك ويبرز غياب الاحترام فى رد الملك يوحنا وأنه يجب أن يحترمه على المستوى الشخصى بنفس الدرجة التى يظهر بها

(٣١) John king of England: John King of England Threatening Letters to The Pope Innocent III (1207), in Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, p. 241; Frank Barlow: op.cit., p. 333.

(٣٢) Innocent III: Letter of Pope Innocent III to Answer Threatening Letters From The English King, in Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, pp. 241 – 244.

البابا احترامه له، بينما كان الشق الآخر من الخطاب قوياً ينفى عن ستيفن لانجتون صفة العمالة والخيانة حتى وإن عمل لفترة فى حظوة البلاط والملك الفرنسى [٣٣] ، ويستمر البابا في الابتزاز العاطفى حينما يذكر الملك الانجليزي بجريمة والده الملك هنرى الثانى فى حق الشهيد توماس بكت، وقد استدعى البابا تلك الحادثة بالتحديد ليربط فى ذهن الملك يوحنا أن ستيفن لانجتون هو الوجه الآخر لتوماس بكت حتى لا يتعالى الملك على اختيار البابا فيعيد بذلك تكرار التجربة التى انتهت بإهانة الملكية الإنجليزية حينما جلد الملك هنرى الثانى نفسه بالسياط أمام مقبرة صديقه اللدود وخصمه العنيد توماس بكت.

يبدو أن تذكير البابا بحادثة توماس بكت لم يؤت أُكله بل أشعل غضب الملك يوحنا الذى استشعر بالتواضع المصطنع والذى لا يخلو من التلميح بإهانة الملك فرد على ذلك بقرارات صادمة قطعت خط الرجعة على كلا الطرفين حينما توجه كل من: وليم أسقف لندن William of London (١١٩٨- ١٢٢١م) ويوستاش أسقف إيلي Eustace of Ely (١١٩٧- ١٢١٥م) وأسقف وينشستر بطري دي روش Peter des Roches (١٢٠٥-١٢٣٨م) للملك يوحنا وطالبوه بأن يرحم الرهبان ورجال الدين ويتوقف عن طردهم وإيذائهم حتي يجنب إنجلترا قرار القطع؛ فرد عليهم الملك يوحنا بكيل من الشتائم والسباب والتجديف في حق البابا والكرادلة، مردداً أنه إذا ما تجرأ البابا على وضع إنجلترا تحت طائلة القطع فإنه سيرسل كل رجال الدين في المملكة إلي البابا في روما، وإذا حاول أي رجل دين أن يأتي من روما فإن الملك سيعيده بعد أن يقتلع عينه ويقطع أنفه، وحينما تم إلقاء القبض على أحد اللصوص بتهمة سرقة وقتل قسيس في ويلز Wales، أطلق الملك يوحنا سراحه عندما عُرض عليه ثم أردف قائلاً:" أطلقوا سراحه ودعوه يذهب لقد قتل عدواً لي"، ونتيجة لسياسة الملك يوحنا وتنكيله برجال الدين الموالين للبابوية اصدر إنوسنت الثالث قرار القطع على إنجلترا فى مارس ١٢٠٨م [٣٤].

---

(٣٣) Benedict Wiedemann: op. cit., p. 96.

(٣٤) Gervase of Canterbury: The Historical Works of Gervase of Canterbury "The Chronicle of The Reigns of Stephen , Henry II, & Richard I", vol.2, ed. William Stubbs, Longman & Co., London, 1879, p. 101; Annales de Waverleia: op. cit., pp. 259 – 260; Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, pp. 245 – 247.

فى ظل إشكالية سعى البابوية لاخضاع إنجلترا للتبعية الإقطاعية ربما يظن البعض للوهلة الأولى أن قرار القطع فى صالح الملك يوحنا لأنه يحقق مبتغاه ويقطع الطريق على تدخلات البابوية فى البلاد؛ لكن سلاح القطع بمقاييس العصور الوسطى التى هى عصور الإيمان كان أمضى من السيف ويخلق تهديداً داخلياً وخارجياً؛ وبالنسبة للتهديد الداخلى فإن الملك بوصفه السيد الإقطاعى الأول أصبح سيداً على أرض ملعونة بما عليها من بشر وحجر، ولكى يتحرر الانسان من طائلة القطع فعليه أن يترك البلاد أى أن الملك سيحكم أرضاً بلا شعب، يُعطل فيها ممارسة كل مظاهر الديانة المسيحية من صلوات وطقوس، وبالإضافة إلى ما سبق فإن قرار الحرمان على الملك يوحنا يحل النبلاء والإقطاعيين سواء من رجال الدين أو العلمانيين من يمين الولاء لملكهم الذى فقد كل حقوقه القانونية بموجب قرار الحرمان (٣٥)، ويبطل أى التزام إقطاعى أو حقوق وواجبات بين الملك ورجاله فيهدم الهرم الإقطاعى من قمته حتى يتم استبدال السيد الإقطاعى بآخر ترضى عنه البابوية، وبالنسبة للتهديد الخارجى فيتجلى فى أن من يرتضى قرار القطع ويختار البقاء فإنه لن يأمن على أرضه التى ستصبح بموجب قرار القطع نهباً ومشاعاً لأى ملك مسيحى يريد الاستيلاء على إنجلترا الواقعة تحت طائلة القطع وله أن يحكمها بمباركة ودعم بابوى؛ فيكون بذلك قرار القطع هو البديل المنطقى لتحقيق هدف البابوية بإخضاع من يحكم إنجلترا إلى التبعية الاقطاعية للبابوية.

عند هذا المنحنى كان على الملك يوحنا مواجهة التهديد الداخلى فلجأ إلى حيلة وهى مطالبة النبلاء والإقطاعيين اللذين يشك فى ولائهم بتقديم رهائن من أبنائهم أو إخوانهم أو من أقاربهم بالدم على أن يتم اطلاق سراحهم بمرور الوقت بعد التأكد من ولائهم، فما إن ذاع خبر قرار القطع وأصبح يتحدث فيه حتى العامة فى الشوارع والطرقات فنكل الملك يوحنا برجال الدين الموالين للبابوية وطردهم وصادر ممتلكاتهم (٣٦)، والمتأمل فيما سبق سيجد أن الملك يوحنا وقع فى سقطة سياسية خطيرة لأنه فى الوقت الذى كان يتوجب عليه مهادنة النبلاء واستقطابهم

(٣٥) Felicity Hill: Excommunication in Thirteenth – Century England "Communities, Politics & Publicity", Oxford University Press, first edition, Oxford, 2022, pp. 111–112.

(٣٦) Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, pp.247– 248 ; Frank Barlow: op. cit., pp. 333– 334.

لصفه أخذ يضيق عليهم الخناق، فأضعف الجبهة الداخلية ونشر حالة من التذمر والتبرم من مبالغته فى الشك والتربص بالنبلاء ورجال الدين فى مملكته.

فى عام ١٢١٣م تحرك النبلاء الإنجليز من أجل الضغط علي الملك يوحنا ولمواجهة بطشه وتنكيله بهم، فاستدعوا ملك فرنسا فيليب أغسطس ليتسلم عرش إنجلترا بمباركتهم، بينما توجه وفد برئاسة ستيفن لانجتون إلي البابوية في روما لنقل ما تكابده كنائس إنجلترا من خراب يستلزم خلع الملك يوحنا من العرش؛ وهو ما كان يوافق هوي البابا إنوسنت الثالث الذي أرسل لملك فرنسا قائلاً: "إن بإمكانه أن يطرد ملك إنجلترا من عرشه، لتصبح إنجلترا لملك فرنسا ولذريته من بعده"، وبناء علي ذلك أرسل البابا المبعوث البابوي باندولف **Pandulph (ت.١٢٣٦م)**[٣٧] مع رئيس الأساقفة ستيفن لانجتون إلي فرنسا لاتخاذ الإجراءات اللازمة لتحقيق هذا الأمر، كما أعلن أن كل من سيقدم العون سواء بالمال أو المشاركة في القتال سيكون كمن خرج في حرب مقدسة [٣٨].

بتحليل ما سبق يتضح لنا أن البابوية قدمت وعداً بعرش إنجلترا لملك فرنسا وهو وعد من لا يملك لمن لا يستحق، فهى وإن كانت قد أصدرت قرار القطع على إنجلترا فإن هذا لايعطيها الحق فى منح عرشها لأحد، وإن كان النبلاء أو البارونات الإنجليز حينما ذهبوا للبابوية للمطالبة بعزل يوحنا واستدعاء ملك فرنسا؛ فإن عملهم هذا يرقى لدرجة الاتهام بالخيانة العظمى من وجهة النظر الداعمة للملكية فى إنجلترا، لكن البابوية حينما توجه الدعوة لملك فرنسا للاستحواذ على عرش إنجلترا فإنها تضع آلية لتنفيذ قرار القطع ولجنى ثماره على أرض الواقع، فأى ملك من ملوك أوروبا له الحق فى الاستيلاء على إنجلترا إن أراد ذلك، لكن البابوية قدمت نفسها كمالك وسيد إقطاعى يبحث عن مستأجر ليدير ممتلكاته، وهى نقطة فى غاية الخطورة لأنها تشكل سابقة خطيرة لن تجعل أى ملك فى الغرب الأوروبى يأمن على عرشه فى المستقبل إن تنازع مع

---

[٣٧] يعرف باسم باندولف ماسكا Pandulf Masca ولد في روما ، كلفه البابا أنوسنت الثالث بالقيام بمهام المبعوث البابوي في إنجلترا لإخضاع الملك يوحنا، وبعد أن تحقق له ما أراد صار مسانداً للملك يوحنا ضد تمرد البارونات الإنجليز، وقد أصبح أسقفاً للنرويج (١٢١٥– ١٢٢٦م)، وحضر مراسم توقيع الملك يوحنا علي العهد الأعظم، توفي ١٦ سبتمبر ١٢٢٦م ، ودفن في نورويش . انظر :

King Richard John: Handbook to The Cathedrals of England, Oxford, 1862, pp. 155 – 156.

[٣٨] Roger of Wendover :op. cit., vol. 2, pp. 259 – 260.

البابوية لسبب ما، بيد أنه ربما كانت الظروف هى من خدمت البابوية فى العثور على مستأجر إقطاعى جديد لإنجلترا؛ وهو الملك الفرنسى فيليب أوغسطس العدو التقليدى والتاريخى لإنجلترا آنذاك، فأى ملك أوروبى آخر لن يقبل على خوض التجربة واستبدال مشروعيته وسند ملكيته بقرار القطع البابوى وإلا أصبح هو نفسه فى مرمى البابوية وقرارات الحرمان والقطع إن خالفها أو عارضها فيما بعد.

مناورة الملك يوحنا وتلويحه بإعتناق الإسلام والتحالف مع الموحدين

لقد توالت الضغوط البابوية على الملك يوحنا فأصبح واقعاً بين شقى الرحى؛ فهو من ناحية واقع تحت قرار القطع وتمرد النبلاء فى إنجلترا ، بالإضافة لعدم ثقته فى ردود فعل العامة الذين قد ينقلبون عليه فى ثورة عاطفية دينية، ومن ناحية أخرى يواجه تهديداً خارجياً يتمثل فى حشد الملك الفرنسى لجيشه ولأسطوله بقيادة ابنه لويس – الذى سيصبح لويس الثامن فيما بعد– لاجتياح إنجلترا والإطاحة به من فوق العرش بمباركة البابوية، وقد ترتب على ذلك لجوء الملك يوحنا لمناورة سياسية صادمة؛ وذلك حينما أرسل سفارة سرية إلى البلاط الموحدى فى الأندلس زمن الناصر محمد بن يعقوب بن يوسف (١١٩٩– ١٢١٣م) ، وكان على رأس السفارة السرية للملك يوحنا كل من: الفارسين توماس هاردينجتون Thomas Hardington، ورالف فيتز نيكولاس Ralph Fitz– Nicholas، والكاتب روبرت أف لندن Robert of London؛ حيث أراد ملك إنجلترا أن يعرض على الخليفة أمير مورمليوس The Emir Murmelius الذى وصفه المصدر أنه الملك العظيم لأفريقيا والمغرب والأندلس[٣٩] وفيما يبدو أن الاسم الذى ورد فى المصدر المعاصر تحريف لمنطوق لقب أمير المؤمنين حيث ظنوا أنه اسم الخليفة لا لقبه، كما يتجلى لنا من خلال ذكر الملك العظيم لأفريقيا والمغرب والأندلس أن الملك يوحنا كان يدرك أبعاد حدود مملكة الناصر الحليف المنتظر وموقعها الاستراتيجى.

بالإضافة لما سبق سندرك أن الملك يوحنا فاض به الكيل وشعر أنه فى تهديد وجودى عليه مواجهته؛ فذهب للعدو التقليدى للبابوية وللملوك الكاثوليك فى الغرب الأوروبى آنذاك وهم المسلمون فى الأندلس دون غيرهم؛ لأنه بالتأكيد لن يجرؤ ملك مسيحى على معارضة البابوية ومساندة الملك يوحنا، المسلمون وحدهم قادرون على تلك المواجهة دون أدنى شعور بالذنب أو

(٣٩) Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, p.283.

المبالاة لأى قرار بابوى، وكان خليفة الأندلس الناصر محمد بن يعقوب بن يوسف هو المرشح المثالى فى نظر الملك يوحنا لقرب المسافة أولاً بين الأندلس وإنجلترا، ومن جهة أخرى الحدود المشتركة وقرب المسافة بين فرنسا والأندلس، مما يسهل مهمة الخليفة الناصر فى مباغتة الحدود الفرنسية فى الجنوب فى حالة تحرك الأسطول أو الجيش الفرنسى نحو مملكة إنجلترا؛ فيجبرها على التراجع أو على الأقل يحد من وطأة التهديد الفرنسى.

ويستمر المصدر المعاصر فى سرد أحداث السفارة وأهدافها؛ حيث أخبر السفراء الخليفة الناصر أن الملك يوحنا يعرض عليه أن يتنازل له عن مملكته وأن يترك العقيدة المسيحية ويعتنق الإسلام ويجعل إنجلترا مملكة مسلمة مقابل أن يتحالفا معاً ضد البابوية ومن يساندها من ملوك أوروبا، وقد بادر الخليفة بسؤال الفارس توماس عن أحوال الملك يوحنا وأخلاقه وكم يبلغ من العمر؟ وعن مملكة إنجلترا وموقعها الجغرافى وأنواع الثروات فى إنجلترا من مراع وغابات، واللغات التى يتحدثها شعبها والمناخ من حيث درجة الحرارة والرياح وقد أجابه الفارس توماس عن جميع الأسئلة كتابةً حتى يقرأها الخليفة، وجاء فى الإجابة أن الملك يوحنا فى الخامسة والخمسين من عمره، وأن المملكة غنية بالأراضى والغابات وهى جزيرة عظيمة محاطة بالمياه من كل جانب حتى إنها توصف بـ "ملكة الجزر"، وشعبها حسن المظهر ويتكلم ثلاث لغات الفرنسية والإنجليزية واللاتينية ويعملون بالتجارة، وهم أحرار متدينون لا يخضعون إلا للملك والكنيسة(٤٠)، وبتحليل خطورة هذا العرض يتبين لنا أن الفارسين توماس ورالف قد بالغا فى الثناء على الملك وثراء المملكة وأهلها وكأنه يغرى الخليفة الناصر ويزين له الصورة حتى يغريه بقبول التحالف.

استكمالاً لأحداث السفارة يروى لنا المصدر أن الخليفة الموحدى بعد أن تحاور مع السفراء تنهد بعمق – على حد وصف المصدر– ثم أردف قائلاً: "لا أظن أحداً يمتلك تلك السعادة ويحولها لشقاء ويتخلى عن سيادته ويمنحها لشخص غريب إن سيدك البائس يختار أن يصبح عبداً على أن يكون ملكاً "، وهو ما يعنى أن الخليفة الناصر أدرك أن توماس هاردينجتون ورالف فيتز كانا يكذبان عليه ويدلسان فى أجوبتهما عن الملك ويقدمان صورة مضللة عن حقيقة الوضع فى مملكة إنجلترا؛ فأعرض الخليفة عنهما وتوجه إلى الرسول الثالث روبرت أف لندن واجتمع به منفرداً حينما استشعر صدقه –رغم ما به من تشوهات جسدية فهو يملك ذراعاً أطول

(٤٠) Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, pp.283– 284.

من الأخرى وأصابعه مشوهة وملتصقة وملامح وجهه تجعله يبدو كيهودى، لكن الخليفة أدرك أن رجل مثله حينما يشارك فى مهمة أو سفارة بتلك الخطورة فلابد من أنه يملك شخصية لا تضيع هيبتها فى الزحام، وحينما انفرد به سأله عن الملك يوحنا وأخلاقه وهل لديه أولاد شجعان وطالبه بأن يصدقه القول فى رده؛ فرد عليه روبرت أف لندن بأن الملك يوحنا طاغية مدمر، أسد على شعبه وحمل وديع مع الغرباء، وأنه فقد ممتلكاته فى نورماندیا وعلى وشك أن يفقد عرشه فى إنجلترا، وأن لديه زوجة تكرهه لأنه يخونها مع عشيقاته، وإن لم ينجب أبناء أقوياء وأنه لا يتورع عن ارتكاب الخطيئة وسفاح القربى، ويعتدى على بنات وأخوات رجاله من النبلاء، فأجاب الخليفة أنه خلال عشر سنوات لن يتمكن الملك يوحنا من السير على قدميه، وقد تعجب الخليفة من صبر الشعب الإنجليزى على هذا الملك، وأن مثل هذا الرجل ملعون فى دينه – الإسلام– ، وبناء على مداولة الخليفة مع روبرت أف لندن أبدى رفضه للعرض الإنجليزى قائلاً: " إنه كان يحتقر الملك يوحنا لكن بعد أن استمع إلى كلامه أصبح يكرهه" (٤١).

ويلاحظ أن هذه القصة تدخل بنا إلى بعد آخر فى طريقة تفكير الملك يوحنا، وإن كان البعض يمكنه الادعاء أن هذه سفارة سرية ولا يفترض أن تصل أخبارها إلى أحد ويمكن الطعن عليها بأنها رواية ملفقة بغرض تشويه صورة الملك يوحنا وإثارة غضب الشعب الإنجليزى عليه فهى لا تتعدى كونها دعاية سلبية كان الغرض منها تصوير الملك يوحنا بالرجل الفاسق الكافر الخائن لبلده وعقيدته، لكن هذا الرأى مردود عليه بأن الملك يوحنا كان فى وضع ميئوس منه؛ فهو محاصر بين نبلاء متمردين ورجال دين أصبحوا هدفاً لبطشه وغضبه وشعب يئن تحت وطأة الضرائب الباهظة، وعدو فرنسى يتربص بالخارج ويتحرك بدعم بابوى؛ ولا يستبعد أن الملك يوحنا فى لحظة ضعف يفكر فى الذهاب للمسلمين فى الأندلس لمواجهة كل هذه التهديدات؛ فهم العدو التقليدى للغرب الأوروبى والبابوية آنذاك، كما أن المسافة بين الأندلس وإنجلترا قريبة جغرافياً مقارنة بغيرها من القوى المسيحية أو حتى الإسلامية التى يأمل منها دعماً أو مدداً.

بيد أن هناك تطوراً خطيراً فى الأحداث وهو أنه على الرغم من العداء الصريح والتعبئة البابوية ضد ملك إنجلترا فإن المبعوث البابوي باندولف توجه سراً إلي البابا إنوسنت الثالث

(٤١) Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, pp.285– 286.

وسأله قائلاً: "ماذا يفعل إن وجد من الملك يوحنا بوادر التوبة والرغبة في التصالح مع الكنيسة، وتقديم الترضية المناسبة في جميع الأمور؟ فأخبره البابا أنه إذا ما وجد من الملك يوحنا العزم الأكيد علي التصالح، فإنه يرحب بذلك وسيجد الحظوة لدي البابا" (٤٢). إنطلاقا من هذا السؤال الذى طرحه باندولف سنجد أن من يريد الإصلاح والتهدئة هو باندولف وليس ستيفن لانجتون الإنجليزي المولد؛ الذى ذهب بنفسه للترتيب لقدوم الملك الفرنسي ليحتل إنجلترا، وهو ما يؤكد أن ستيفن لانجتون في تلك المرحلة لم يكن يريد إصلاحاً وإنما كان يعمل لصالح البابوية لا إنجلترا وهو ما يدعم مخاوف الملك يوحنا السابقة ويظهر صدق حدسه حينما وصف ستيفن لانجتون بأنه عدوُ له يخدم فى البلاط الفرنسى –كما سبق الذكر– وبأنه ليس محل ثقة.

كانت الأحداث المتلاحقة تضيق الخناق على الملك يوحنا بعد أن وصلته الأخبار عن طريق جواسيسه بمراسلة البابا لفيليب أغسطس يحرضه علي غزو إنجلترا، وأنه سيتحرك بالفعل ولهذا استعد يوحنا لتلك المواجهة، وعلى الرغم من أنه تحرك مع قواته إلي الساحل في دوفر – جنوب إنجلترا– إلا أنه تيقن فى قرارة نفسه أن ملكه إلى زوال، فانهارت معنوياته لأسباب ذكرها روجر أف وندوفر بالتفصيل حيث أكد أن الملك لم يثق بنبلائه ويشعر بأنهم سيتخلون عنه أثناء سير المعركة بل وربما يسلمونه إلى أعدائه، كما أن الملك فقد الأمل لخلاص روحه بعد أن أمضى ما يزيد عن خمس سنوات تحت طائلة الحرمان وبلاده تحت طائلة القطع؛ لكنه فوجئ بقدوم اثنين من فرسان الداوية يخبرانه أنهما جاءا من أجل مصلحة الملك والبلاد، وأن باندولف المبعوث البابوي يريد مقابلته ليعرض عليه السلام؛ وقد تم اللقاء بالفعل وكانت الرسالة تهديداً واضحاً لا يحتمل التأويل:"ملك فرنسا فيليب أغسطس ينتظر بأسطوله وجيوشه لطرده من المملكة بوصفه عدواً للرب والبابا، وأنه سيعيد جميع الأساقفة الذين أبعدهم يوحنا ونفاهم عن إنجلترا رغماً عنه (٤٣).

(٤٢) Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, pp. 259 –260.

(٤٣) Ibid., vol. 2 , pp. 261, 263 – 364.

تسليم عرش مملكة إنجلترا وأيرلندا للبابوية مايو ١٢١٣م

لقد انهارت قوى الملك يوحنا ولم يعد يستطيع الاستمرار فى مقاومة البابوية فوافق على مطالبها فى الثالث عشر من شهر مايو ١٢١٣م وبحضور المبعوث البابوي باندولف وحشد من النبلاء ليسود السلام مع البابوية، وبعد يومين أى فى الخامس عشر من مايو تنازل الملك يوحنا عن إنجلترا وأيرلندا للبابوية وفقاً لمرسوم مكتوب اعترف فيه بخطئه تجاه الكنيسة، وأنه سيدفع للبابوية ألف مارك سنوياً عبارة عن سبعمائة مارك عن إنجلترا وثلاثمائة مارك عن أيرلندا. وانه إذا تجرأ أحد في المستقبل علي إنكار ذلك الحق فإنه يحرم من حقه في حكم المملكة، علي أن تسدد تلك الجزية علي مرتين الأولي في عيد القديس ميخائيل St Michael – أي في التاسع والعشرين من شهر سبتمبر– والثانية في عيد الفصح، وقد تنازل الملك يوحنا عن عرش إنجلترا وإيرلندا وسلم المملكتين إلى البابا إنوسنت الثالث ولخلفائه من البابوات من بعده(٤٤).

وهكذا وبعد صراع طويل بين البابوية وملوك إنجلترا منذ الفتح النورمانى أصبحت إنجلترا وأيرلندا تابعتين للبابوية إقطاعياً بما يترتب عليه ذلك من التزامات وواجبات ، وتؤكد إحدى الدراسات أن البابا حينما سمح للملك يوحنا أن يحكم إنجلترا كتابع إقطاعى ومعاون للبابوية فى إدارة إنجلترا كجزء من الخزانة البابوية لبطرس الرسول (٤٥) ولن يجرؤ أحد فى المستقبل من ملوك إنجلترا على إنكار ذلك الحق وإلا فقد شرعيته وحقه فى حكم المملكة –كما سبق الذكر– لأن وثيقة تنازل الملك يوحنا أصبحث هى العقد وسند ملكية البابوية الإقطاعى لإنجلترا، فكانت الهزيمة الساحقة للملك يوحنا فى صراعه الذى بدأ فى صورة التقليد العلمانى لرئيس أساقفة كانتربورى ستيفن لانجتون؛ لينتهى بخيبة وسقطة لاتغتفر للملك يوحنا الذى فقد حريته واستقلاليته؛ وقد وصفت إحدى الدراسات الحديثة الموقف بأن ملك إنجلترا تحول من السيد الإقطاعى الأول فى إنجلترا إلى تابع إقطاعى للبابوية التى أصبح من حقها أن تسترد عرش

(٤٤) Matthew of Westminster: op. cit., vol. 2, pp. 116 – 117; King John of England: Letter of how he resigned his crown & The kingdom of England in to The hands of pope Innocent, in Roger of Wendover: op. cit., vol.2, pp. 268 – 270; Jane E Sayers: Papal Government and England During the Pontificate of Honorius III (1216– 1227), pp. 162– 163.

(٤٥) Jane E Sayers: op. cit., pp. 162–163.

إنجلترا وتفسخ العلاقة الإقطاعية مع ملك إنجلترا إن أرادت ذلك بموجب حق السيادة الإقطاعية للبابوية أو فلنقل التبعية الإنجليزية الإقطاعية للبابوية [٤٦] ، بل وورط خلفاءه من بعده فى تسديد أقساط إيجار إقطاعى يقدر بألف مارك سبعمائة عن إنجلترا وثلاثمائة عن أيرلندا، وهو ما يمثل قيداً ماليا فى أعناق ملوك إنجلترا حتى نهاية العصور الوسطى.

وفى سياق متصل هناك تساؤل يطرح نفسه آلا وهو لماذا تخلت البابوية عن دعمها للملك الفرنسى وانقلبت عليه وأبدت مهادنتها لإنجلترا؟! سنجد أن الاجابة سياسية بحتة لا علاقة لها بالدين لأن البابوية يمكنها أن تضمن ملكاً إنجليزياً يتنازل عن ملكه؛ لأنه سيكون خاضعاً منكسراً على أتم استعداد لتقديم التنازلات إرضاءً للبابا وإثباتاً لحسن نيته؛ أما الملك الفرنسى سيكون ملكاً منتصراً مزهواً بنصره ولن تقدر البابوية على مجابهته إن عارضها أو اختلف معها، ولهذا كان الحل الأمثل للبابوية هو إعادة الحمل الشارد إلى القطيع ، بدلاً من صنع طاغية لن يقدر عليه أحد بعد إزاحة إنجلترا من المشهد السياسي.

لقد تسلم باندولف المرسوم الذي تنازل فيه يوحنا عن إنجلترا وأيرلندا، ثم أسرع بالتوجه إلي فرنسا ومعه ثمانية آلاف جنيه استرليني كتعويض عن تكلفة إقامة أساقفة ورجال الدين الإنجليز المنفيين في فرنسا وأمرهم بالعودة إلي إنجلترا، كما طلب باندولف من الملك الفرنسى فيليب أغسطس أن يكف يديه عن إنجلترا وألا يتحرك بجيوشه ضد الملك يوحنا، ولكن الملك الفرنسي غضب بشدة ورد بأنه أنفق ما يقرب من ستين ألفاً من الجنيهات علي إعداد الجيش والأسطول لغزو إنجلترا [٤٧]. ومما سبق يتبين أن الملك الفرنسى شعر بخيانة البابوية له وأنها ضحت به كحليف، غير عابئة بخسائره المادية واستعداداته العسكرية التى أثقلت كاهله واستنزفت الخزانة الفرنسية، وهو ما يستلزم تفسيراً منطقياً عن سبب انقلاب البابوية على حليفها ملك فرنسا؟ وللإجابة عن هذا التساؤل سنجد أن البابوية ربما استشعرت خطورة القضاء على ملك إنجلترا لأنها بذلك تستبدل طاغية بآخر، فالقضاء على ملك إنجلترا المنافس التقليدى لملوك فرنسا وإزاحته من المشهد السياسى سيعطى لفيليب أوغسطس قوة مطلقة، لدرجة أنها لن تجد من يتصدي له إن انقلب علي البابوية، فها هي ذى الإمبراطورية المقدسة – ألمانيا – تنقلب علي

(٤٦) Benedict Wiedemann: op. cit., pp. 95 – 97.

(٤٧) Roger of Wendover :op. cit. , vol. 2 , p. 271 .

البابوية من آن لآخر، وبعد أن تقضي البابوية علي إنجلترا ستتعاظم قوة فرنسا؛ ولهذا اختار البابا اخضاع الملك يوحنا إقطاعياً للبابوية بعد أن استنزفه وأنهكه مادياً ومعنوياً وضمن تحقيق الخضوع بوثيقة التنازل عن إنجلترا وأيرلندا، وفي نفس الوقت لا يغامر بطغيان ملك فرنسا عليه فيما بعد؛ لأنه لن يجد من يقوى على مواجهة ملك فرنسا إن انقلب لسبب أو لآخر على البابوية، ولن تجد من تصدره فى المشهد وإن استخدمت جميع أسلحتها من قرارات الحرمان أو القطع أو اللعنة.

قام البابا إنوسنت الثالث بإرسال خطاب إلى المبعوث البابوى نيكولاس أُفْ توسكولوم Nicolas of Tusculum (ت. ١٢١٨م) [٤٨] الذى كان متواجداً فى إنجلترا يأمره برفع قرار القطع عن إنجلترا وأنه تم التوافق على الصلح مع الملك يوحنا وبناء على هذا الخطاب، فى يوم الاحتفال بعيد القديس بولس – أى فى التاسع والعشرين من شهر يونيه– عام ١٢١٤م قام المبعوث برفع قرار القطع فى احتفال مهيب أقيم فى كنيسة القديس بولس حضره رؤساء الأساقفة والأساقفة ومقدمى الأديرة والإيرلات والبارونات وسط الترانيم والصلوات وأجراس الكنيسة، وقام المبعوث البابوي بتوضيح شروط الاتفاق لجميع الحاضرين وفقاً لترتيبات البابا[٤٩].

كان من المفترض أن تنتهى مشاكل الملك يوحنا بالتصالح مع البابوية لكن الجبهة الداخلية فى المملكة أصبحت مهلهلة فرجال الدين الإنجليز لايتوقفون عن مطالبة الملك يوحنا بالأموال تعويضاً عن مصادرة ممتلكاتهم وكنائسهم فى فترة الخلاف مع البابوية لدرجة أن المبعوث البابوى نيكولاس توسكولوم حينما أحاطوا به ليطالبوه بالضغط على الملك ليدفع لهم الأموال ويعيد الممتلكات المصادرة انزعج منهم وطالبهم بإرسال شكواهم إلى البابا ثم أرسل للبابا

---

[٤٨] يعرف كذلك باسم نيكولاس أف رومانيس Nicolas of Romanis وهو كاردينال إيطالي المولد، أرسله البابا أنوسنت الثالث كمبعوث بابوي إلي إنجلترا في سبتمبر ١٢١٣م، عرف عنه العدل والتواضع مما أكسبه محبة واحترام الجميع في إنجلترا كما عرف عنه تبحره في علم اللاهوت، عين أسقف فراسكاتي Frascati عام ١٢٠٥م . انظر :

Painter Sidney : The Reign of King John , Fourth edition , Ayer Publishing , 1964 , pp.195 – 197 .

[٤٩] Innocent III: Letter of Pope Innocent III Nicholas bishop of Tusculum on The withdrawal of The interdict 1214, in Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, pp. 295–296; Ibid., pp. 296– 297; Benedict Wiedemann: op. cit., p. 97.

يتهمهم بالجشع، أما النبلاء والبارونات فقد فاض بهم الكيل واستدعوا الملك الفرنسى لاستكمال مهمته واقصاء الملك يوحنا عن العرش الإنجليزى،لكن المفاجأة أن البابوية أصدرت قرار الحرمان ضد النبلاء الإنجليز الذين استدعوا الملك الفرنسى (٥٠)، وفى حقيقة الأمر إن المتأمل فى تدهور الأوضاع سيجد أن النبلاء الإنجليز الذين صدر ضدهم قرار الحرمان لاستعانتهم بالملك الفرنسى لم يستحدثوا الأمر؛ بل ساروا على نفس نهج البابوية حينما تحالفت مع الملك الفرنسى، ليتضح لنا أن البابوية حرمت على النبلاء الإنجليز ما حللته لنفسها، وأن قرار الحرمان الذى أصدرته ضدهم هو فى نفس الميزان مع قرار الحرمان ضد الملك يوحنا وقرار القطع ضد إنجلترا جميعهم سلاح سياسى بصبغة دينية استخدم فى تركيع المعارضين للسيادة الإقطاعية البابوية على إنجلترا.

لقد احتشد النبلاء فى يناير ١٢١٥م لمطالبة الملك باحترام القوانين التي تنظم علاقة الملك بأتباعه من الإقطاعيين، وللمطالبة برد ممتلكاتهم وحصونهم التي صودرت، لكن الملك تحداهم ورفض مطالبهم وخاطبهم مستهزئاً:" بعد هذه المطالب المجحفة لماذا لم يطالب أولئك النبلاء بمملكتي أيضاً"، وعند هذا المنحني بادر النبلاء بالزحف نحو لندن وأجبروا الملك علي توقيع وثيقة العهد الأعظم والتي عرفت باسم " الماجنا كارتا " لكنه سرعان ما تنصل منه وتراجع عن وعوده (٥١) .

أرسل الملك يوحنا إلى البابا إنوسنت يستنجد به من تمرد النبلاء الإنجليز وأنه وضع نفسه وحقوق مملكته تحت حماية الكرسى الرسولى، فرد البابا برسالة مؤرخة بالرابع والعشرين من شهر أغسطس ١٢١٥م قائلاً:" هل نبلاء إنجلترا يسعون إلى الخروج على ملك سيحمل الصليب – يخرج فى حرب صليبية– ووضع مملكته فى إنجلترا وأيرلندا تحت حماية الرسول بطرس إن تلك إهانة لايمكن السكوت عنها"، لأن الملك إنجلترا دفع ألف مارك وأقسم لنا يمين الولاء الذى ختمناه بختم البابوية الذهبى، ولكن يبدو أن الشيطان الذى يغار من الأعمال الصالحة للبشر تملك من نبلاء إنجلترا حتى تمردوا على الملك يوحنا ابن البابوية البار، ولذلك على النبلاء وكبار

(٥٠) Roger of Wendover: op. cit., vol. 2,pp. 296– 297, 340 , 343.

(٥١) Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, pp. 302 – 306, 309, 325 ; Matthew of Westminster: op. cit., vol. 2 , p. 121 .

رجال الدولة والكنيسة أن يتواضعوا ويخضعوا للملك ويتوقفوا فوراً عن التأمر ضد سيدهم الملك يوحنا ومراسلة أعدائه، لأن إنجلترا تابعة للبابوية ولا يمكن إجراء أى تغيير لهذا الوضع إجحافاً لحق البابوية ولسلطة بطرس الرسول، وإلا ستكون وصمة عار للأمة الإنجليزية ولهذا نأمر ببطلان بنود العهد الأعظم ونحرم من الكنيسة من يؤيده ويوافق على بنوده (٥٢).

لقد استخدمت البابوية لأول مرة حقها الإقطاعى وأعلنت صراحة دون مواربة للنبلاء الإنجليز بأن إنجلترا تابعة للبابوية، وأنها تلقت بالفعل من الملك ألف مارك قيمة الإيجار الإقطاعى، لذلك فإن الوقوف أمام تابعها الإقطاعى الملك يوحنا هو معاداة لبطرس الرسول وافتئات على حق البابوية يستوجب قرار الحرمان، مما يؤكد لنا أن البابوية رأت في نجاح الثوار تهديداً لحقها الإقطاعي، فقررت مساندة الملك يوحنا ليس تنازلاً عن حقها الإقطاعي وإنما رغبةً في الحفاظ علي شرعية تنازل يوحنا عن إنجلترا، حتي لايكون العطاء ممن لا يملك لمن لا يستحق.

لم يشأ البابا إنوسنت الثالث أن يترك حليفه الجديد ألعوبة فى يد النبلاء الإنجليز أوضحية لأطماع الملك الفرنسى، فأخذ على عاتقه تفتيت هذا التحالف بالسير على محورين متوازيين أولهما: تشتيت المقاومة الداخلية فى إنجلترا عن طريق إصدار قرار الحرمان على من يؤيد الماجنا كارتا أو يعارض الملك يوحناكما سبق الذكر، وثانيهما: إرسال والو Walo (١١٥٠ – ١٢١٧م) مبعوثاُ بابويا إلى الملك الفرنسى فيليب أغسطس يبلغه أوامر البابا لكى يمنع ابنه لويس من الزحف نحو إنجلترا ويتوقف تهديد ميراث بطرس الرسول ، ويتوقف أيضاً عن التآمر ضد الملك يوحنالأنه الآن يحكم إنجلترا التى أصبحت تابعة للبابوية، فرد عليه الملك فيليب قائلاً: "إن إنجلترا لم ولن تكون أبداً ميراثاً لبطرس الرسول، وبالتالي لايجوز للملك يوحنا التنازل عن إنجلترا للبابوية دون موافقة نبلائه ورجاله، ثم يعود ليحكمها كتابع إقطاعى مقابل الألف مارك التى يدفعها للبابوية سنوياً؛ لأنه سيجعل نبلاء عبيداً وهم لن يوافقوا على ذلك ولن يقبلوا بالدفاع

(٥٢) Innocent III: Letter of Pope Innocent III How by the immunity from the apostolic see the liberties granted to the English barons were annulled 24th August 1215, in Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, pp. 329 – 333.

عن المملكة، كما أن ما حدث يمثل نموذجا سيئاً" [٥٣]. وهكذا يتبين لنا أن البابوية كشفت عن جميع أوراقها وأعلنت أن إنجلترا أصبحت ميراثاً بابوياً، وأن كلاً من البابوية والملك الفرنسى كان يضمر كلاهما الغدر بالآخر فالبابوية بمجرد أن لاحت لها فرصة التصالح مع ملك إنجلترا هرولت إليه وألقت وراءها التحالف الفرنسى دون اكتراث لخسائره المادية والسياسية، وفى نفس الوقت كان الملك الفرنسى ينتوى الاستحواذ على إنجلترا لصالحه دون البابوية بدليل رده على المبعوث البابوى والو أن إنجلترا لم ولن تكون من ميراث القديس بطرس وهو بذلك لم يكن مشاركا فى الصراع لحساب البابوية ولكن لحساب فرنسا فقط، كما أن رد الملك الفرنسى بأن ماحدث يجعل نبلاء وبارونات إنجلترا عبيداً أو أقنان ليس لهم من أمرهم شيئ، يبرهن على أنه لم يكن ينوى الوقوع فى الفخ الإقطاعى البابوى الذى وقع فيه الملك يوحنا.

لم يمهل القدر الملك يوحنا طويلاً إذ سرعان ما توفى مصاباً بالحمي، وقد أوصي قبل موته بترك مملكته إلى ابنه هنري الثالث Henry III (١٢١٦ – ١٢٧٢م) ، تحت وصاية فارسه المؤتمن وليم مارشال والذي سرعان ما قام بدفن الملك يوحنا ومضي في تتويج ابنه الملك هنري الثالث، ثم أخذ يعيد توزيع القلاع والحصون علي الموثوق بهم من رجال الملك ، إلي أن تمكن من هزيمة الأمير لويس في عدد من المواقع المختلفة وأجبره علي الموافقة علي الهدنة مستغلاً النزاع الذي نشب بينه وبين النبلاء الإنجليز بسبب تعاليه ومعاملتهم باحتقار، وتسليمه الحصون التي تم الاستيلاء عليها لفرسانه من الفرنسيين فأدرك البارونات الإنجليز أنهم كانوا ألعوبة بيد الملك الفرنسى فجنحوا للسلم، وتم عقد معاهدة لامبث في الحادي عشر من شهر سبتمبر عام ١٢١٧م، حيث أقسم وليم مارشال والمبعوث البابوي جوالا علي رد حقوق بارونات إنجلترا، ومنحهم الحريات التي طالبوا بها الملك يوحنا من قبل، مقابل احترامهم لحقوق الملك الصغير هنري الثالث الذى أقسم يمين الولاء الإقطاعى للبابوية كما فعل أبوه من قبل [٥٤] .

---

٥٣) Ibid. , pp. 361 – 362 .

٥٤) Anonyme: Histoire des Ducs de Normandie et des Rois D' Angleterre, tome 2, Paris, 1840 , pp. 180 – 181, 187 – 188; Roger of Wendover: op. cit., vol. 2, pp. 385, 402– 403; Annales de Dunstaplia Annales Prioratus de Dunstaplia (1 – 1297), in Annales Monastici, vol. III, ed. by Henry Richardes Luard, Longman, London, 1866, p. 46; Benedict Wiedemann: op. cit., pp. 101 – 102.

لقد انتهت أزمة الملك يوحنا مع رجاله وأتباعه بنهاية ثورة النبلاء الأولي، ليترك ابنه الصغير هنري الثالث تحت الوصاية بعد أن تحولت إنجلترا لإقطاعية بابوية تم إخضاعها سياسياً واقتصادياً ودينياً، وهو ما يضع إنجلترا في إطار جديد بصبغة إقطاعية، حيث ظلت تدفع الجزية مقابل الحماية البابوية والتي قدرت بألف مارك كإيجار إقطاعي، بالإضافة لبنسات بطرس التي كانت تدفع سنوياً للبابوية، كل هذه الامتيازات المالية التي حصلت عليها البابوية أثقلت كاهل إنجلترا إقتصادياً

لقد أصبح مبلغ الألف مارك بمثابة إيجار إقطاعى، وأصبحت وثيقة تنازل الملك يوحنا هى سند الملكية الرسمى ووثيقة تبعية إنجلترا الإقطاعى للبابوية، فأُجبرت إنجلترا من خلاله على دفع الأقساط البابوية فى موعدها؛ ويمكننا تتبع الشعور العام تجاه دفع إنجلترا لتلك الجزية من خلال قول متى الباريسى ضمن أحداث عام ١٢٣٧م حين قال: "إن الخزينة البابوية التى امتلأت من أموال الدول الأجنبية، ويعيشون بثقة على إرث المسيح، ويتفاخرون باستحواذهم على ممتلكات الآخرين التى كانت مبللة بالدموع والتنهدات، حتى قال البعض إن الموت أفضل من رؤية معاناة شعبنا وكنيستنا، ويل لإنجلترا التى كانت سيدة الأمم ومرآة الكنيسة إنها تدفع الآن الجزية بسبب الآثام التى ارتكبها رجالها ويحكمهم الآن طاغية" (٥٥)، إذاً فإن الاتجاه العام للشعب الإنجليزى هو رفض هذه الجزية التى تنتقص من حريتهم وكرامتهم ، وتملأ الخزان البابوية من أموال الشعب الإنجليزى المقهور والمغلوب على أمره.

ويفاجئنا المؤرخ ماثيو أف باريس بمعلومات لعلها قد تكون محورية فى التعرف على خاتمة العلاقة الإقطاعية التى ربطت إنجلترا بالبابوية، فيروى هذا المؤرخ أن هناك وفداً على رأسه الإيرل روجر بيجود Earl Roger Bigod، William de Cantelupe Philiz جون فيتز جيوفرى John Fitz Geoffrey، رالف فيتز نيكولاس Ralph Fitz Nicholas، والسيد وليم بوريك الكاتب Master William de Poweric clerk، فيليب باسيت Philip Bassett وقد جاء الجميع من إنجلترا لحضور مجمع ليون الأول ١٢٤٥م، ويستمر ماثيو باريس

(٥٥) Matthew Paris: English History " From The year 1235 – 1272" , Including A General Index to Matthew Paris and Roger of Wendover's , Trans. by John Allen Giles, vol. 1, Henry G. Bohn, London, 1854, p.51.

بالقول:"إن الملك بشكل ما بدأ ينقلب على البلاط البابوى فأرسل النبلاء الإنجليز يشتكون من تراكم الأموال التى فرضتها البابوية على إنجلترا بسبب تلك الجزية دون موافقة الشعب الإنجليزى؛ ولهذا تم إرسال تلك الاستغاثة لكى ترفع البابوية عن إنجلترا تلك الجزية؛ لكن وثيقة تنازل الملك يوحنا عن عرش مملكة إنجلترا وأيرلندا قد أحترقت فى عام ١٢٤٥م؛ حيث تعرض المنزل الذى كان يقيم فيه البابا فى ليون للحريق حيث كان يقيم أثناءعقد مجمع ليون الكنسى، وقد التهمت النيران غرفة البابا وخزانة ملابسه بمحتوياتها كاملة، وقد تردد وقتها من بعض الأساقفة المعادين للبابا أن الغرفة قد أُحرقت عمداً لصالح البابا حتى يكون لديه ذريعة لطلب المزيد من المال من الأساقفة الحاضرين، ومن ضمن الأشياء المهمة التى احترقت تلك الوثيقة البغيضة التى وقع عليها الملك يوحنا والتى بمقتضاها تدفع إنجلترا الجباية المقررة عليها سنوياً للبابوية(٥٦).

وهنا تتزاحم عدة تساؤلات فهل كان هذا الحريق مدبراً من قبل الوفد أو غيره من أناس تم استئجارهم لإتمام هذه الفعلة؟ ألم يكن الإنجليز قد ضاق ذرعهم إلى الحد الذى قرروا إنهاء هذه العلاقة بهذا الشكل الدرامى؟ ألم يكن هذا الأسلوب معتمداً فى إنهاء علاقات غير معتادة بأساليب غير معتادة. وأياً كان الأمر فإن الإجابات على هذه الأسئلة صعبة ولا يمكن التكهن بها إلا أنها تعطى برهاناً واضحاً على أن نهاية العلاقة الإقطاعية بين البابوية وإنجلترا قد حان أوانها وقت تنفيذ هذه الفعلة فى عام ١٢٤٥م.

بيد أن الملك يوحنا لم يضمن انتظام خلفائه فى تسديد الإيجار الإقطاعى ولم توجد آلية لإجبارهم على السداد، لكن إحدى الدراسات التى تتبعت مدى انتظام ملوك إنجلترا فى الدفع أوضحت أن الملك يوحنا بعد تسليم مملكته للبابوية دفع الإيجار الإقطاعى حتى وفاته ١٢١٦م، كما دفعها بعده ولده هنرى الثالث فى يوم تتويجه الأول على العرش حينما كان تحت الوصاية، واستمر فى الدفع بعد أن تم تتويجه للمرة الثانية برغم كثرة الأعباء المالية وشكواه المتكررة من عبء السداد – كما سبق الذكر– ، بينما تجنب ابنه الملك إدوارد Edward I (١٢٧٤–١٣٠٧م) الدفع للبابوية منذ عودته من حملته الصليبية على فلسطين ١٢٧٣م ؛ فحينما مر إدوارد على البابا جريجورى العاشر فى روما ذكره بدفع الإيجار الإقطاعى لإنجلترا لكن إدوارد

(٥٦) Matthew Paris: op cit., vol. 2, pp. 54 – 56.

ظل يماطل فى الدفع حتى وفاته، وقد سار على نهجه الملك إدوراد الثانى Edward II (١٣٠٧- ١٣٢٧م) الذى كان أكثر مماطلة ومراوغة من والده ، وأن آخر مرة تم تسديد الإيجار كانت فى عهد الملك إدوارد الثالث Edward III (١٣٢٧- ١٣٧٧م) عام ١٣٣٣م ، ولكن فى عام ١٣٦٦م أسقط البرلمان حقوق البابوية ، وأكدت الدراسة أن الإيجار الإقطاعى للبابوية دفعته إنجلترا لمدة ثمانية وسبعين عاماً بشكل غير منتظم من أصل مائة وعشرين [٥٧]. وبغض الطرف عن مدى مشروعية سداد إنجلترا للإيجار الإقطاعى ومدى انتظامها فى سداد تلك الأقساط؛ فإن الأمر المؤكد أنها شكلت عبئاً ماديا أثقل كاهل الخزينة الإنجليزية فتهرب الملوك من دفعها عمدا مع سبق الاصرار رغم مطالبات البابوية المتكررة بها، وربما كان السبب فى ذلك عدم القدرة على السداد أو عدم ثقة إنجلترا فى البابوية خاصة فى فترة الأسر البابوي فى أفينيون الفرنسية فمن غير المعقول أن تدفع إنجلترا الأموال للبابوية وهى فى قبضة الملك الفرنسى فى ظل العداء التاريخى بين إنجلترا وفرنسا وهما على أعتاب حرب المائة عام.

وختاماً فإن فكرة التبعية الإقطاعية للبابوية فى أوروبا انتشرت بحيث أرادت البابوية استنساخ التجربة مرة أخرى، ولنا فى صراع البابوية مع خلفاء الإمبراطور فردريك الثانى نموذجٌ واضحٌ؛ حينما استبدلت البابوية حكم الهوهنشتاوفن فى صقلية وجنوب إيطاليا وحاولت بيع عرش صقلية لإدموند أف لانكستر إدموند إيرل لانكستر Edmund Earl of Lancaster (١٢٤٥- ١٢٩٦م) ابن ملك إنجلترا هنرى الثالث [٥٨]؛ وحينما فشلت الصفقة بسبب استنزاف البابوية

---

(٥٧) Jane E Sayers: op. cit. , pp. 164 – 165.

(٥٨) عرض البابا ألكسندر الرابع Alexander IV (١٢٥٤- ١٢٦١م) عرش صقلية علي الملكة إليانور زوجة هنري الثالث لأنها كانت تريده لإبنها الصغير إدموند إيرل لانكستر، وهو ما وافق هوي في نفس الملك هنري الثالث، الذي وصفه متى الباريسي بأنه كان من السهل عليه أن يصدق ادعاءات البابا بشأن صقلية، حينما أصدر البابا ألكسندر الرابع مرسوماً يقضى بمنح إدموند عرش صقلية وأبوليا، وسرعان ما أخذ الملك هنري يدعو ابنه ذا الأعوام التسعة " ملك صقلية " وكانت ثورة البارونات الإنجليز في عام ١٢٥٨م هي التي حسمت العلاقة بين إنجلترا، وعرش صقلية ، حينما أجبر الملك هنري الثالث علي التخلي عن عرش صقلية ، وأصدر البابا ألكسندر الرابع Alexander IV (١٢٤٥ – ١٢٦١م) مرسوماً في الثامن عشر من ديسمبر ١٢٥٨م بإلغاء ترشيح الأمير إدموند أف لانكستر، علي الرغم من أن البابوية أخذت من إنجلترا ما يقرب من ستين ألف مارك لقاء هذا الترشيح. لمزيد من التفاصيل انظر:

Matthew Paris : op. cit. , vol. 3 , p. 225 ; Wiegler , Paul: The Infidel Emperor and His Struggles Against The Pope " A Chronical of The 13 Century ", Trans. by Brain W.

للخزانة الإنجليزية، تراجعت البابوية عن الصفقة وباعت صقلية وجنوب إيطاليا إلى شارل كون أنجو الذى اسس لحكم الأسرة الأنجفية الفرنسية بوصفه تابعاً إقطاعيا للبابوية ؛ وقد بلغ الأمر مداه حينما طالبت مملكة المجر وأراجون فى فترة وصاية جيمس الأول ملك أراجون بوضع مملكتهما تحت حماية البابوية [٥٩] .

Downs, London, 1930, pp. 288, 295; Runciman Steven: The Sicilian Vespers, Penguin Books, Cambridge University Press, 1960, p. 76 .

[٥٩] Benedict Wiedemann:op. cit., pp. 103– 104, 109; Jane E Sayers: op.cit.,p. 164.

الخاتمة

لعل هذه الدراسة أثبتت قضية تبعية إنجلترا الإقطاعية لبابوية روما إشكالية وحلقة من حلقات الصراع بين الدولة والكنيسة فى الغرب الأوروبى الوسيط، فقد بدأت كفكرة وادعاء دون وجه حق؛ ثم تحولت إلى حقيقة واقعة انتهت بتسليم الملك يوحنا لعرش إنجلترا إلى البابوية فى روما، وأصبح بذلك يحكم البلاد كتابع إقطاعى مقابل دفع ألف مارك تسدد للبابوية سنوياً، وأن كل من يتجرأ على إنكار هذا الأمر يفقد شرعية حكمه؛ وعلى الرغم من إدعاء البابوية لهذا الحق آنذاك كان سابقة تاريخية لم تتكرر مع أى مملكة أخرى من ممالك الغرب الأوروبى، إلا أنها أصبحت تمثل تهديداً فعلياً لممالك الغرب الأوروبى العتيدة مثل فرنسا أو ألمانيا أو إيطاليا، والدليل على ذلك تكرار الأمر مرة أخرى فى صراع البابوية مع خلفاء الإمبراطور فردريك الثانى؛ حينما استبدلت البابوية حكم الهوهنشتاوفن فى صقلية وجنوب إيطاليا وحاولت بيع عرش صقلية لإدموند أف لانكستر ابن ملك إنجلترا هنرى الثالث؛ وحينما فشلت الصفقة بسبب استنزاف البابوية للخزانة الإنجليزية، تراجعت البابوية عن الصفقة وباعت صقلية وجنوب إيطاليا إلى شارل كون أنجو الذى أسس لحكم الأسرة الأنجفية الفرنسية بوصفه تابعاً إقطاعيا للبابوية .

كما انتهت تلك الدراسة إلى وضع إطار لعلاقة البابوية مع إنجلترا، حيث سعى ملوكها الأنجلوسكسون إلى كسب ود البابوية ودعمها عن طريق المنح والعطايا واستحداث الضرائب التى تجمع من العامة والكنائس ثم تُرسل إلى روما؛ وهو ما تسبب فى توجيه انتباه البابوية لثروات إنجلترا، فى وقت عانى فيه الغرب الأوروبى من اضطراب العملة والاقتصاد.

أرادت البابوية أن تجعل من الفتح النورمانى سبيلاً لتحويل إنجلترا إلى إقطاعية بابوية يحكمها تابع إقطاعى يقسم يمين الولاء مقابل أن تسمح له بحكم إنجلترا؛ والبابوية بذلك تحاكى نظام الولايات والإقطاعيات البابوية فى وسط وجنوب إيطاليا وصقلية، والتى آلت إليها عن طريق هبة قسطنطين التى تعد واحدة من أهم مصادر دخل البابوية، لكن الملك وليم الفاتح قطع الطريق على البابوية ونفى نفياً قاطعاً كونه تابعاً إقطاعياً، وأكد على أن ما يرسله من أموال هو صدقات وهبات لا إيجار إقطاعى، ولهذا تشدد الملك وليم الفاتح وخلفاؤه النورمان فى إغلاق

المملكة ومنع دخول أى مبعوث أو موظف بابوى لإنجلترا دون إذنه، حتى لا يتركوا للبابوية فرصة التسلل إلى المملكة وتثبيت ادعائها.

كما خلصت الدراسة إلى أن مشكلة التقليد العلمانى كانت أحد أسلحة ملوك إنجلترا الناجزة لمواجهة التدخل البابوى فى شئون البلاد تحت ستار الإصلاحات الدينية، وهو ما يمكن تتبعه فى أزمة "دستور كلارندون"، "مقتل توماس بكت" فى عهد الملك هنرى الثانى، أو فى "مشكلة الانتخاب المزدوج" فى عهد الملك يوحنا، وقد سارت مشكلة التقليد العلمانى فى خط موازٍ مع استغلال الملكية للأموال التى يتم تجميعها من الكنائس الإنجليزية أو من ضريبة القديس بطرس كورقة ضغط على البابوية؛ حيث استغل ملوك إنجلترا حاجة البابوية لتلك الأموال للضغط عليها والامتناع عن ارسالها إلى روما، وكثيرا ما كان يتباهى ملوك إنجلترا ويمنون على البابوية بما يرسلونه لها من أموال لا تستطيع أى مملكة أخرى فى أوروبا أن تضاهيها.

حينما فشلت البابوية فى انتزاع اعتراف ملوك إنجلترا بالتبعية الإقطاعية، استبدلت سند الملكية الإقطاعية بقرار القطع على إنجلترا؛ وذلك لأن البابوية حينما هددت بمنح عرش إنجلترا للملك الفرنسى، ثم أجبرت الملك يوحنا على التنازل عن عرشه فى إنجلترا وأيرلندا فجعلت قرار القطع بديلاً عن سند الملكية الإقطاعية، وهى سابقة قابلة للاستنساخ تاريخياً، وكان من المتوقع أن تتحول إلى فزاعة تلوح بها البابوية ضد أعدائها من ملوك الغرب الأوروبى المسيحى.